هدايا المشرق

وثائق

لدرس تاريخ البطريركيات الملكية

٦

الصليب في الإسلام

درس أثري تاريخي مقتبس من الأصول الإسلامية

بقلم

حبيب زيات

١٩٣٥

مطبعة القديس بولس في حريصا

هدايا المسرة

سلسلة الهدايا التي ارسلتها المسرة لقرائها وتطلب من ادارة مطبعة القديس بولس في حريصا

وثائق لدرس تاريخ البطريركيات الملكية	فرنك
١ً – البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم : سنوه الأخيرة بقلم ابن اخيه الشماس توما مظلوم	٨
٢ً – تاريخ الشام للخوري ميخائيل بريك	١٠
٣ً – خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : بقلم حبيب زيات	٢٠
٤ً – تاريخ الشيخ ضاهر العمر الزيداني : حاكم عكا وبلاد صفد	١٠
٥ً – شهداء حلب القسم الاول والثاني	٢١
٦ً – الصليب في الاسلام : بقلم حبيب زيات	١٠
الكنائس الشرقية البيزنطية : للاب الياس اندراوس البولسي	٢٠
في سبيل الاتحاد : سلسلة محاضرات القيت في كاتدرائية القاهرة في مصر سنة ١٩٢٧	٨
آداب المعاشرة : للطيب الأثر المطران جرمانوس معقد	٨
عوائد العرب : للطيب الأثر الخوري بولس سيور البولسي	٨



الصّليبُ في الإِسلامِ

البسملة

اصطلح النصارى عـلى استعمال التصليب في مبتدإ كل قول وعمل ولاسيما في مفتتح الـكتب الدينية والصلوات . طلباً للتبرك والتوفيق والمعونة . ولا مراء ان البسملة الاسلامية انما أريد بها عند وضعها محاكاة هذا الاصطلاح . ومقابلته بمثله . ولذلك أضيف فيها الى اسم الله صفتان متقاربتان اي الرحمن الرحيم . لتكون الاسماء الحسنى ثلاثةً ازاء تثليث النصارى . واول ما وردت عـلى هذه الصفة في ام القرآن . وعمَّ استعمالها على الاثر حتى اصبح كالسنَّة والفرض . ومن الغريب ان بعض النصارى منذ اوائل عهد العباسيين كانوا لا يرون اقلَّ بأس بالاستعاضة احياناً بهذه البسملة عن البسملة النصرانية . ومن اشهر من اختارهـا منهم عبد المسيح بن اسحق الـكندي من علماء النساطرة ومن ذرية ملوك كندة . في جوابه على رسالة وجَّهها اليه عبدالله بن اسماعيل الهاشمي من ذوي قرابة الخليفة العباسي عبد الله المأمون . فاستفتح ردَّه عليه بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » . وكان الاقباط خصوصاً من اسرع النصارى واحرصهم على التشبه بالمسلمين في كل عاداتهم وشاراتهم واحوالهم .

والتمثّل[1] بهم في اختيار الاسماء والكُنى والالقاب الاسلامية طمعاً في مساواتهم وخشية ان يتميزوا عنهم فيُعرَفوا . ويتعرضوا للذلة والصغار . وبالغوا في مثل هذه المحاكاة والاقتداء حتى لم يتوقف نسّاخهم وكتبتهم عن نقل الفاظ البسملة القرآنية في اوائل التوراة والانجيل كالتي تقرأ في نسختي التوراة ترجمة الحارث بن سنان بن سنباط رقم Laud. Or. 258 و Hunt. 186 من خزانة اكسفرد . وقد تكررت في الثانية منها في غير موضع واحد . ومثلها في خزانة بريتش موزيوم كتاب الانجيل رقم Add. Or. 9061 . بخط مغربي تعريب احد الاندلسيين المستعربين (Mozarabes) تحرّى فيه نَمَط التعبير الاسلامي وبدأه بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين »

وقد تحرّج بعضهم قليلًا من مثل هذا التقليد الحرفي فادخل في الاسلوب القرآني بعض التغيير وكتب « بسم الله الرؤوف الرحيم » كما في نسخة قديمة من الكتاب المقدس رأيناها اخيرًا في

---

(١) مما يدل اتم الدلالة على ولع الاقباط بتقليد المسلمين اعتياد قوم منهم الاختتان . قال احد علماء الراهب الطبيب المكين جرجس اخو الاسعد ابرهيم كاتب الجيوش المنصورة في الجزء الثاني من كتابه « الحاوي المستفاد من بديهة الاجتهاد » نرويه بعبارته الحرفية كما وجدناها : « ان الذين يروا الختان الالحمي من جماعة البيعة الارثذكسيه يزعمون انهم انما يفعلون ذلك لاحتمال ان ابناءهم قد يتفق لاحدهم المخالطة باحد الامم الخارجة عن الايمان المسيحي لعرض من الاغراض فيحملهم على الختان بعد المعمودية . فيوافق على ذلك [illegible] في استمرار عشرة ذلك الخارجي . فيقع في مخالفة القوانين البيعية . اذ [illegible] ختان اللحمي . » وفي هذا الفصل (الاول من الباب الرابع) انكار طويل لهذه العادة الاجنبية (خزانة اكسفرد Hunt 186) ولا يخفى ما في مثل هذه العادة المنكرة في الدين من شدة ميل الاقباط الى مشاكلة المسلمين ومجاراتهم حتى في الخروج عن سنن الادب والعفة

دير مار يوحنا الصابغ في الشوير (لبنان) كتبها الناسخ القبطي برسم خزانة الشيخ ابي الفضائل هبة الله بن ابي الليث وهو شقيق ابي البركات يوحنا الملكي الذي تولى سنة ٥٠١ للهجرة (١١٠٧م) ديوان التحقيق في الدولة الفاطمية. وراق هذا الابدال اليسير بعض اساقفة الاقباط فلم يرَ بأساً في انتحال هذه البسملة المنقَّحة. وخطَّها في مفتتح وقفية له لكتاب النبوءات رقم Or. 1311 في خزانة لندرة. ووضع بجانبها علامته القبطية « طاناسيوس اسقف ابوتيج » بتاريخ سنة ١٥١٠ للشهداء (١٧٩٤ م). وهو ما يدلّ على ان هذا الاصطلاح المنكر كان لا يزال شائعاً سائغاً حتى ختام القرن الثامن عشر. وورد نظير هذه البسملة في الورقة ١٨٥ من المخطوط رقم Add. 1523 بجانب توقيع البطريرك بطرس القبطي

ولما كان في النية ـ والاشياء مرهونة باوقاتها ـ ان نباشر في الآجل القريب نشر بعض صفحات وفصول من تاريخ النصرانية في الاسلام. رأينا ان نقدم بين يدي مثل هذه المباحث الآخذة بنصيب من تاريخ الملَّتين. المشاركة في تعريف غابر ايام الفريقين. شرحاً لطيفاً عن ماضي الصليب في الاسلام نجعله كالبسملة فاتحة للتأليف. ونعدد فيه كل اثر وخبر للصليب او اشارة اليه في الأدب والشعر والتاريخ والمذاهب والعادات. وننبه على بعض ما تداول عليه من الاطوار والوقائع في الحياتين الدينية والمدنية. بين رفع وخفض. وظهور وخفاء. وتشدد فيه وتسامح. الى ما شاكل ذلك من الاخبار والروايات التي حرصنا على جمعها اثناء اسفارنا وزياراتنا للخزائن الغربية والشرقية. مما نرجو ان يكون فيه فائدة ومُستمتع

للقارئ وعبرة وبيان لرائد الاخبار النصرانية في الشرق . وهذه ولا جرم اول مرة يُشار فيها الى مثل هذا المبحث الشاق الطريف . ولم يسبق لاحد قبلنا كلام في معناه . ولا يخفى مـا له من الخطر والشأن في درس ماضي النصرانية في الاسلام . وما تطلبه منا من كثرة التنقيب والتقليب . وإدمان المطالعة والمراجعة



الصليب في اللغة

قال الليث : الصليب ما يتخذه النصارى قِبلةً . والجمع صُلبان وصُلب . وثوب مصلَّب فيه نقش كالصليب (لسان العرب) .
وللصليب فيما عدا ذلك معانٍ جمعها ابو اليمن تاج الدين الكندي في ابيات عملها في عمارة اليمني الشاعر المعروف حين صلب في ايام السلطان صلاح الدين بمصر لمخامرته على إعادة الدولة الفاطمية . وهي

عمارة في الاسلام ابدى خيانة   وبايع فيها بيعة وصليبا
فامسى شريك الشِرك في بغض احمد   واصبح في حب الصليب صليبا[1]
وكان خبيث الملتقى ان عجمته   تجد منه عوداً في النفاق صليبا[2]
سيلقى غدًا ما كان يسعى لاجله   ويُسقى صديداً في لظىً وصليبا[3]

فالصليب اذن في عرف بعض اللغويين ليس الّا محراب النصارى او الناحية التي يستقبلونها في صلواتهم . واذا اراد كتبة الاسلام ان يعنوا الخشبة التي عُلِّق عليها المسيح قالوا « صليب الصلبوت » .
ومنه قول ابن العديم في اخبار وقعة حطّين سنة ٥٨٣ للهجرة (١١٨٧م)
« وكان من جملة الغنيمة في يوم المصافّ صليب الصلبوت وهو قطعة خشب مغلّفة بالذهب . يزعمون ان ربهم صُلب عليها وضربت

---

(١) شديداً . من الصلابة
(٢) خالص النسب
(٣) بمعنى الصديد . وهو ما يسيل من جاود اهل النار اخذًا من قول القرآن : ويسقى من ماء صديد

في يديه المسامير · احضروه معهم المصاف تبركاً به ورفعوه على رمح عال[1] »

وعلى ذكر هذا الصليب روى الذهبي ان السلطان صلاح الدين ارسل به بعد استيلائه عليه الى بغداد · وهـذا نص ما اورده في جملة اخبار سنة ٥٨٥ (١١٨٩ م) قال :

« في ربيع الاول وصـل القاسم ابن الشهرزوري رسولاً من السلطان صلاح الدين · وصحبته صليب الصلبوت الذي تزعم النصارى ان عيسى عليه السلام صُلب عليـه · فأُلقي بين يدي عتبة باب النوبي فبقي اياماً[2] »

ولكنه عاد فزعم ان هـذا الصليب كان موجوداً في خزائن خلفاء مصر · اخذه صلاح الدين منها وبقي محفوظاً الى ان اهداه السلطان الملك الكامل بعد استرجاعه دمياط من يد الفرنج · ووهبه لصاحب عكا منهم سنة ٦١٦ (١٢١٩ م) وهذه عبارة الذهبي بتاريخ السنة المذكورة :

« لمّا سلّم الفرنج دميـاط اطلق السلطان (الملك الكامل) رهائنهم · وبقي صاحب عكا حتى يطلقوا رهائن السلطان · فابطأوا · فركب السلطان ومعه صاحب عكا . وكان خلقة هائلة · فاخرج السلطان من صدر قباه صليب الصلبوت الذي كان صلاح الدين اخـذه من خزائن خلفاء مصر · فلما رآه صاحب عكا رمى بنفسه الى الارض · وشكر السلطان · وقال هذا عندنا اعظم من دمياط ·

(١) زبدة الحلب في تاريخ حلب خزانة باريس رقم ١٦٦٦ ص ٢١١

(٢) التاسع من تاريخ الاسلام في خزانة اكسفرد Laud. Or. 304 f° 162°

وقال له السلطان خذ هذا تذكاراً من عندي . واركب في مركبك ورُحْ نفِّذ رهائننا . فلم يفعل وبعث الصليب مع قسيس[١] »

ولم نجد مَن ذكر هذين الصليبين سوى الذهبي . واذا صحَّت كلتا الروايتين يكون صليب خلفاء مصر قطعة صغيرة من العود الكريم ولذلك تمكن الملك الكامل من وضعه في صدر قبائه . ويكون الصلبوت المرسل الى بغداد قد ردّ بعد ذلك الى صلاح الدين حتى وعد بتسليمه في جملة الشروط التي عاهد عليها الصليبيين بعد موقعة عكا سنة ٥٨٧ (١١٩١ م)

ويقال في تقبيل الصليب « مسحه وتمسَّح به » قال جرير في بني تغلب من نصارى العرب :

رويدكُمْ مسح الصليب اذا دنا   هِلالُ اِلجزى واستعملوا بالدراهم[٢]

وله ايضاً فيهم

ولم تمسح البيت العتيق اكفُّها   ولكن بقربان المسيح تمسَّحُ[٣]

والصليب عند كتاب الانشاء الشريف هو عين النصرانية وشعارها . ولذلك قلَّما اشاروا الى الدين المسيحي الّا بلفظ « دين الصليب » كما في نص الهدنة التي استقرّت سنة ٦٨٢ للهجرة (١٢٨٣ م) بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين افرنج عكا وصيدا وعثليث وبلادها . قالوا :

« كذلك يعتمد مولانا السلطان ... على ان تكون كنيسة

(١) مجلد من تاريخ الاسلام في خزانة بريتيش موزيوم Or. 52 f° 181b

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٠٢

(٣) 〃 〃 〃 ص ٥١٠

الناصرة واربع بيوت من اقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب[١]»

وللقيسراني يمدح السلطان نور الدين بعد قتل البرنس صاحب انطاكية :

ضربتَ كبشهم فيها بقاصمةٍ
اودى بها الصُلب وانحطت بها الصُلب

ولابن منير في مثل ذلك :

صَدم الصليب على صلابة عوده فتفرقت ايدي سبا خشباته[٢]

ومثل ذلك قول ابن عُنين في وقعة دمياط مشيراً الى الملكين الشقيقين موسى ومحمد ابنَي السلطان الملك العادل ابن ايوب :

لو لم يقم موسى بنصر محمد لعلا على درج الخطيب الاسقف
لولاه ما ذلّ الصليب واهله في ثغر دمياط وعزّ المصحف[٣]

ومن هذا الباب ايضاً قول تقي الدين اسمعيل ابن ابي اليسر في قصيدته المشهورة لما اكتسح التتار بغداد :

علا الصليب على اعلى منابرها وقام بالامر من يحويه زنار[٤]

فالنصارى عندهم « اتباع الصلبان[٥] » « وعباد الصليب وعبدة

(١) تشريف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور . باريس رقم ١٧٠٤ ص ٨٤
(١) زبدة الحلب لابن العديم ص ١٧٢
(٣) ديوان ابن عنين . الفاتيكان رقم ٣٦٠
(٤) الحادي عشر من تاريخ الاسلام للذهبي . اكسفرد Laud. Or. 305 f° 249ª
(٥) تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل لابن الاثير في مجموع مؤرخي الحروب الصليبية ص ٧٢ . المطبعة الاهلية . باريس

الصلبان » ومن ذلك قول عماد الدين الكاتب الاصبهاني من رسالة انشأها عن السلطان صلاح الدين الايوبي الى ديوان الخلافة ببغداد مبشرًا بفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ للهجرة (١١٨٧ م)

« اسكنه الفقهاء والعلماء . بعد الجهال والضلّال من بطرك وقس . وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس[١] »

وممن مُدح بانه « قامع عبدة الصلبان » السلطان صلاح الدين في خطبة ابن زكي الدين الدمشقي بعد فتح القدس[٢] والملك الظاهر بيبرس البندقداري في مقدمة كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد[٣]

واكثر ما يُسمى النصارى في الكتابات السلطانية باسم « الطائفة الصليبية » واطلقوا لقب « كبير الطائفة الصليبية » على بطرك الملكانية[٤] وعلى متملك سيس[٥] (اي ملك الارمن في كيليكية) . وعلى صاحب دنقلة[٦] . ووصفوا كلًّا من صاحب القسطنطينية وملك الكرج بانه « كنز الطائفة الصليبية[٧] » ونعتوا صاحب البندقية بانه « جمال الطائفة الصليبية وذُخر الملة الصليبية[٧] »

ويُطلق الصليب في الكلام على جيوش الروم على عدد عشرة

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت الرومي ج ٧ ص ٨٧ . وانما سمى النصارى مستقبلي الشمس لانهم يتجهون في كنائسهم وصلواتهم جهة المشرق

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٩٣

(٣) نسخة خزانة الفاتيكان رقم ٧٣٠ ص ٢

(٤) ديوان الانشاء . باريس رقم ٤٤٣٩ ص ١٧٥

(٥) صبح الاعشى للقلقشندي ج ٦ ص ١٧٨

(٦) « « « ج ٦ ص ١٨٠

(٧) « « « ج ٦ ص ١٧٧

آلاف مقاتل . ومنه قول ابن حمدان لاهل حلب حين نزل عليهم امير الجيوش والي دمشق من قِبَل العزيز بالله الفاطمي وضجروا من طول حصاره . فقالوا لابن حمدان :

«امّا ان تدبِّر البلد والّا سلَّمناه . فقال اصبروا عليّ ثلثة ايام . فان البرجي والي انطاكية (من قبل الروم) قد سار الى نصرتي في سبع صلبان[1]»

ومن الشواهد التي نُصَّ فيها على هذا العدد قول الكتبي في اخبار سنة ٢٩١ (٩٠٣م)

«فيها بعث ملك الروم عشرة صلبان . مع كل صليب عشرة آلاف . فاغاروا على اطراف البلد . وقتلوا خلقاً كثيراً[2]» . وهو مأخوذ من قول عريب : «سنة ٢٩١ ورد الخبر من الثغور بان صاحب الروم وجه اليها عسكرًا فيه عشرة صلبان ومائة الف رجل . فغاروا وكبسوا واحرقوا[3]»

واحسن تشبيه ورد فيه ذكر صلبان الروم بيت لابرهيم الحرّاني المعروف بعين بصل . من قصيدة في وصف دمشق . وهو

كأن منثورها اذ لاح مبتسماً   جيش من الروم باتت فيه صلبان[4]

ولا حاجة الى التنبيه على لقب الصليبيين الذي اتخذه الفرنج حين قدموا لافتتاح بيت المقدس وسائر بلدان فلسطين والشام . وفي

(١) زبدة الحلب لابن العديم ص ١١١
(٢) المنتخب من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي الفاتيكان رقم ٧٣٥ ص١٨٧
(٣) صلة الطبري ص ٦
(٤) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١ ص ٣١

ايامهم فيما يظهر دعي سفر الخريف في البحر «الصليبية» وهو ما يؤخذ من قول الرحالة ابن جبير :

« استهلّ هلال جمادى الآخرة ليلة الاحد التاسع من شهر شتنبر العجمي ونحن بدمشق حرسها الله على قدم الرحلة الى عكة فتحها الله . والتماس البحر مع تجار النصارى في مراكبهم المعدة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية[1] »

ومن معاني الصليب المولّدة قولهم للشيء المهجور المحرّم : «عليه صليب» وقد «صلّبت عليه» او «خططت عليه صليباً» . ومنه قول الامير مجير الدين بن تميم :

قد هجرت الراح حتى ليس لي فيها نصيب
وعلى الراووق مني طول ما عشت صليب[2]

ومثله للشيخ صدر الدين بن الوكيل :

يا خير نديم كان يؤنسني من بعدك صلّبتُ على الراووق[3]

ولا يخفى ما في هذه الابيات من التورية الى صايب الطين الذي كان يُرسم على راووق الخمر كما سيجيء

وقد انفرد الاعشى باستعمال « صلّب » بمعنى اتخذ الصليب . واغرب منه استعماله كذلك «صار» بمعنى اتخذ الصور . حيث قال يصف احد الرهبان :

وما أيبَليٌّ على هيكل بناه وصلّب فيه وصارا

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٩٨
(٢) خزانة الادب لابن حجّة الحموي . طبعة مصر ١٣٠٤ ص ٢٦٥
(٣) « « « « « « « « ص ٣٥١
(٤) لسان العرب ج ٦ ص ١٤٤

الصليب فى الحديث

لم نجد في صحيح البخاري ذكرًا للصليب الّا في حديث واحد ورد في باب كسر الصليب وقتل الخنزير وهذا لفظه :

« حدثنا علي بن عبدالله . حدثنا سفيان . حدثنا الزهري قال: اخبرني سعيد بن المسيَّب سمع ابا هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلعم قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكَماً مقسطاً فيكسر الصليب . ويقتل الخنزير . ويضع الجزية . ويفيض المال حتى لا يقبله احد[1] »

وفي سنن ابي داود « باب في الصليب في الثوب » جاء فيه حديث عمران بن حطان عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلعم كان لا يترك في بيته شيئاً فيه تصليب الّا قضبه[2]

وفي لسان العرب « ثوب مصلَّب فيه نقش كالصليب» . وفي حديث عائشة ان النبي صلعم كان اذا رأى الصليب في ثوب قضبه اي قطع موضع الصليب منه . وفي الحديث نهى عن الصلاة في الثوب المصلَّب . وهو الذي فيه نقش امثال الصلبان . وفي حديث عائشة ايضاً « فناولتها عطافا فرأت فيه تصليباً فقالت نحِّه عني » وفي حديث ام سلمة انها كانت تكره الثياب المصلبة . وفي حديث جرير : « رأيت على الحسن ثوباً مصلّباً »

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٤٩ طبعة المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٨

(٢) سنن ابي داود ج ٢ ص ١١٢

وكل هذا منقول عن «النهاية في غريب الحديث والاثر» لابن الاثير (ج ١ ص ٧٣ المطبعة الخيرية)

وفي حديث عدي بن حاتم: «قدمت على النبي وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي «القِ عنك هذا الوثن» يريد الصليب[1]



(١) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٣٤

الصليب فى عرف الشعراء

هو عود في رأي جرير . قال الخالدي : ذكروا ان جريراً دخل دير سمعان في يوم عيد . فرأى النساء والصبيان يقبلون الصُلُب ويسجدون لها فقال :

رأيت بدير سمعان صليباً   تقبّله الشوادن والظباء
تعظّمه القسوس وتحتويهِ   فترشفه ويخنقها البكاء
فقلت مه لهم هل غير عود   تملّكه اعوجاج واستواء[1]

ومثله للوليد بن يزيد في نصرانية من حسان النصارى اسمها سفرى احبّها

اضحى فؤادكَ يا وليد عميداً   صباً قديما المحسان صيودا
من حب واضحة العوارض طفلة   برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلتُ ارمقها بعيني وامق   حتى بصرتُ بها تقبّل عودا
عودالصليب فويح نفسي من رأى   منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي ان اكون مكانه   واكون في لهب الجحيم وقودا[2]

ودعاه عبدالله بن الزبير « بدأه» حيث قال يهجو بني عجل النصارى

تهددني عجل وما خلت انني   خلاة امجل والصليب لها بعل[3]

(١) مسالك الابصار للعمري ص ٣٤٦

(٢) الخامس من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي رقم ٥٤ في الخزانة الظاهرية بدمشق

(٣) الاغاني ج ١٦ ص ١٣ ، ٤٧ طبعة بولاق

وسماه الاعشى « وثناً » فقال :

تطوف العفاة بابوابه كطوف النصارى ببيت الوثن

قال الازهري قال شمر فيا قرأت بخطه « اصل الاوثان عند العرب كل تمثال من خشبة او ذهب او فضة او نحاس . وكانت العرب تنصبها وتعبدها وكانت النصارى نصبت الصليب وهو كالتمثال تعظمه وتعبده ولذلك سمّاه الاعشى وثناً[1] »

وجعله الأُقيشر وجرير ايضاً . وابو نواس الهاً للنصارى . فقال الأُقيشر

في فتيةٍ جعلوا الصليب الههم حاشاي اني مسلم معْذور[2]

وقال جرير يهجو الاخطل

لعن الاله من الصليب الهه واللابسين برانس الرهبان[3]

وقال ابو نواس :

اني هويت حبيباً لست اذكره الّا تبادر ماء العين ينسكبُ . . .

مُزنَّر يتمشى نحو بيعته الهه الابن فيا قال والصُلبُ[4]



(١) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٣٤

(٢) تاج العروس ج ١٠ ص ٩

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٣

(٤) ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس رقم ٤٨٣١ المجلد الثالث ص ٩٤

القسم والحلف بالصليب

كان نصارى العرب واهل الحيرة اكثر ما يقسمون في كلامهم بالصليب . او بالصليب والمعمودية . او بالصليب والقربان . قال البكري في الكلام على دير هند بنت النعمان احد ملوك الحيرة المناذرة . قال ابو الفرج :

« دخل الى هند بنت النعمان المغيرة بن شعبة (لما ولّاه معاوية الكوفة) وقد عميت . فحادثها طويلاً . ثم خطبها . فضحكت وقالت شيخ اعور وعجوز عمياء . والصليبِ ما اردتني طلباً للنسل . ولا رغبةً في مال . او شغفاً بجمال . ولكنك اردت ان تقول اني نكحت ابنة النعمان . انصرفْ راشدًا . فانصرف وهو يقول :

ادركتْ ما منّيتُ نفسي خالياً ــ لله درك يا ابنة النعمانِ . . .
اني لحلفك بالصليب مصدق ــ والصُلب اصدق حِلفة الرهبان[1]

وللحسن بن هانئ يخاطب احد غلمان النصارى :

قد رضينا بسلام ــ او كلام من قريبِ
فبروح القدس عيسى ــ وبتعظيم الصليبِ
قِفْ اذا جئتَ الينا ــ ثم سلّم يا حبيبي[2]

ولما اراد ابن مرينا ان يصرف الاسود بن النعمان عن عديّ

---

(١) معجم ما استعجم للبكري . طبعة اروبة ص ٣٦٣ . والاغاني للاصبهاني ج ٢ ص ٣٣

(٢) ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس رقم ٤٨٣١ ص ٩٣

ابن زيد . قال له « غشّك والصليبِ والمعمودية[1] »

ومن كلام الاخطل الشاعر التغلبي : « والصليبِ والقربان . لأتخلصنَّ الى كليب خاصة دون مُضر بما يلبسهم خِزيه . ويشملهم عاره . ثم اعلم ان العالم بالشعر العربي لا يبالي وحقِ الصليب . اذا مرّ به البيت العائر السائر الجيد . أمسلم قاله ام نصراني[2] »

ومثله قول ابنٍ لابن حنين بن بَلّوع المغني من اهل الحيرة « والصليبِ والقربان ما صُنع هذا الصوت الا في منزلنا[3] »

ومن الغريب حلف الشاعر عديّ بن يزيد . وهو نصراني . بربِّ مكة والصليب معاً في قوله :

سعى الاعداء لا يألون شرًّا عليك وربِّ مكة والصليبِ[4]

واغرب من ذلك قَسَم بعض المسلمين بالصليب ولو على سبيل المجانسة والنكتة . قال ابرهيم بن خالد المُعَيْطي : « دخلت على المهدي وقد وُصف له غنائي . فسألني عن الغناء وعن علمي به . وقال لي : تغني النواقيس (وهو صوت سُمّي كذلك لمحاكاته ضرب النواقيس) فقلت نعم والصليبِ يا امير المؤمنين . فصرفني[5] »

وكان الخلفاء والملوك يوجبون القسم بالصليب ثلاثاً في كل يمين من الأيمان التي كانوا يقتضونها من النصارى والافرنج والارمن . ولما وقع الصلح مع تكفور صاحب سيس الارمني . مستهل ربيع الآخر سنة

(١) الاغاني ج ٢ ص ٢٣ طبعة بولاق
(٢) « ج ٧ ص ١٧٨
(٣) « ج ٣ ص ١٢٣
(٤) « ج ٢ ص ٢٤
(٥) الطبري ص ٥٤١ و٥٤٢ T. S. I.

٦٨٤ (١٢٨٥ م) كانت نسخة الهدنة واليمين « اقول وانا ليفون هيتوم ابن كستنطين . واللهِ واللهِ واللهِ . . . وحقِ الصليب . وحقّ الصليب[1] »

ومثله حين تم الصلح سنة ٦٨٩ للهجرة (١٢٩٠م) مع الريد اركون البرشنوني (Roi d'Argonne de Barcelone) واخيه صاحب صقلية فكانت نسخة اليمين : اقول وانا ذو فنس (Alphonse) واللهِ واللهِ واللهِ . وحقِّ المسيح وحقِّ الصليب وحقِّ الصليب وحقِّ الصليب[2]. »

وكذلك حين استقر الصلح مع الافرنج سنة ٧٧١ (١٣٦٩ م) بعد وقعة الاسكندرية . فكانت اليمين :

واللهِ واللهِ واللهِ . وحق الصليب (ثلاث مرات) وحق اللاهوت والناسوت وصليب الصلبوت[3] . . .

ولم يكن كتّاب الانشاء الشريف يقفون عند هذا الحد من التحليف بالصليب . بل كانوا يكررون ذكره في نص اليمين غير مرة . ويقولون بلسان الملكانيين ويعنون بهم نصارى الروم والافرنج قاطبة : « متى خالفت هذه اليمين التي في عنقي او نقضتها . . . اكون . . . جحدت مذهب الملكانية . وانكرت وقوع الصلب على السيد ايسوع . وابيت عيد الصليب . . . وكسرت الصلبان . ودست برجلي القربان . . . وكسرت صليب الصلبوت وطبخت به لحم الجمل . . . ومزقت غفارة ام الرب . واحدثت تحت صليبه[3] . . . »

ولا يخفى ما في مثل هذا القسم من السفه والسفالة وتعمد الاهانة

---

(١) تشريف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور . باريس ١٧٠٤ ص ١٨٤

(٢) 〃 〃 〃 〃 〃 〃 〃 〃 ص ٣٣٤

(٣) اجابة السائل الى معرفة الرسائل . باريس ٤٤٣٧ ص ١٠٢ ـ ١٠٤

التصليب او الارتسام

من شواهد التصليب قول الحسن بن هانئ في وصف الخمر :

يسقيكها من بني العباد رشاً   منتسب عيده الى الاحدِ
اذا بنى الماء فوقها حبباً   صلّب فوق الجبين بالزبدِ

اي عمل صليباً من زَبَدها على جبينه[1]

قال الفتح بن خاقان في مطمح الانفس في ترجمة ابي عمرو يوسف بن هرون الكندي المعروف بالرمادي الشاعر المتوفى سنة ٤٠٣ للهجرة (١٠١٢ م) : « وكان كَلِفاً بفتى نصراني استسهل لباس زناره . والخلوة معه في ناره . وخلع برودَه . وتسوَّغ دين مسيحه وجعله معبوده . وراح في بيعته . وغدا من شيعته . ولم يشرب نصيبه . حتى خطَّ عليه صليبه . فقال :

أَدِرْها مثل ريقك ثم صلِّب   كعادتكم على وجهي وراسي[2] »

ورووا ان الحسن بن عضد الدولة ابي الحسن اخي المتوكل على الله ملك الاندلس ابن يوسف بن هود الجُذامي « كان اذا طلعت الشمس يستقبلها ويصلب على وجهه[3] » وهو الذي دفن بسفح قاسيون سنة ٦٩٧ للهجرة (١٢٩٧ م)

وقد استعمل المسلمون احياناً في موضع صلّب « خط الصليب »

---

(١) ديوان ابي نواس . الفاتيكان ٤٥٦ ص ٩٥

(٢) عيون التواريخ للكتبي . ج ١٢ الخزانة التيمورية ص ٢٩٣ـ٢٩٥

(٣) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ١٦٤

كما سبق من كلام الفتح بن خاقان . ومنه البيت المنحول لخالد ابن يزيد بن معاوية وكان قد قال في امرأته رملة بنت الزبير بن العوّام ابياتاً منها :

احبّ بني العوّام طرًّا لحبها ومن حبّها احببت اخوالها كلبا

ومعلوم ان بني كلب كانوا من نصارى العرب . فزاد بعضهم بعد هذا البيت :

فان تُسلمي نُسْلم وان تتنصَّري تخطّ رجال بين اعينهم صُلبا

فلما سمع هذا البيت عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي قال له : تنصّرت يا خالد . قال وما ذاك . فانشده هذا البيت . فقال له خالد : على من قاله ومن نَحَلنيهِ لعنة الله[1]

وهذا اللفظ هو اصح وافصح من قول بعض النصارى المتأخرين « رسم اشارة الصليب » في تعريب العبارة الفرنجية Faire le signe de la Croix

ومن مرادفات التصليب الارتسام . وفي معاجم اللغة انه « التكبير والتعوّذ والدعاء » اي ان يقول الرجل : « الله اكبر . واعوذ بالله » . وزعموا ان معنى ارتسم الرجل كبّر ودعا[2] . واستشهدوا عليه بقول القطامي وهو من شعراء النصارى . يصف سفينة شراعية تقاذفتها الامواج حتى خشي الملاح فيها من الغرق

في ذي جُلولٍ يقضّي الموت صاحبُه

اذا الصَراريُّ من اهواله ارتسما

(١) الاغاني للاصبهاني ج ١٦ ص ٨٩

(٢) لسان العرب ج ١٥ ص ١٣٣ وتاج العروس ج ٨ ص ٣١٣

ومثله قول الاعشى :

وصهباء طاف نهاميُّها وابرزها وعليها ختَم
وقابلها مستهاماً لها وصلّى على دنّها وارتسم

وذهب ابو حنيفة ان معنى ارتسم هنا ختم اناءها بالروسم اي بالطابع[1] . وهو وَهم ظاهر وتمحّل بعيد . ينفيه قول البيت الاول « وعليها ختم » . وانما ارتسم في كلا الشاهدين بمعنى صلّب اي رسم الصليب على نفسه . لان الصراريّ وهو الملّاح في بيت القطاميْ . اذا عاين هياج البحر وخاف من الغرق . يستغيث برسم الصليب لينقذه من الهلاك . وهو ما يفعله كل نصراني اذا فاجأه مكروه او خشي من قوع خطر . فالتعوّذ والدعاء في تفسير ارباب المعاجم هما من قرائن الارتسام ولوازمه . لا من معانيه . والصلاة تبتدئ دائماً بالتصليب ولذلك طابق الاعشى بين « صلى وارتسم » . فمعنى الارتسام اذن في اللغة « رسم الصليب » لا غير كما نطقت به نصارى العرب . وهو التفسير الصحيح الذي لا يتوجه عليه اقل اعتراض كما يظهر للمتأمل . فليحرر



(١) لسان العرب ج ١٥ ص ١٣٣

اشكال التصليب

اختلفت النصارى منذ القرون الاولى في كيفية التصليب . وذكر ابن النديم ان ماني المشهور بين اصحاب البدع . وضع رسالة في التصليب[١] . وفي كتب الاقباط والنساطرة خصوصاً شروح ومجادلات في هذه الاختلافات . وهي منحصرة في بسط الاصبع الواحدة او الاثنتين او الثلاث او الخمس في رسم الصليب . وفي الاتجاه بها من اليمين الى اليسار . او من اليسار الى اليمين . وقد وَهَم بعض الكتّاب المسلمين في كلامهم على الصليب فزعم احدهم ان الفرنج يصلبون بالعشرة[٢] اي بكلتا اليدين معاً . ولكل من هذه الاشارات تخريجات واحتجاجات تفننوا فيها وأغربوا في استنباطها غاية الاغراب انتصاراً لمذاهبهم

التصليب باصبع واحدة

هو سنّة اليعاقبة من سريان واقباط وحبش ونوبة . زعم انبا ميخائيل اسقف دمياط انهم « منذ تلمذوا لم يصلّبوا الّا باصبع واحدة . » قال :

« فاما الصليب باصبع واحدة فرجوعنا معشر القبط الى ما شهد به انجيل لوقا « فان كنت باصبع الله اخرج الشياطين فقد اقتربت منكم ملكوت السماوات .

---

(١) كتاب الفهرست طبعة مصر ص ٣٣٧

(٢) الاجوبة الفاخرة لشهاب الدين احمد بن ادريس القرافي المالكي . باريس ١٩٥٦ ص ٣٢

ولم يقل باصبعَي الله . وفي هذا كفاية ... والاصبع الواحد اشارة مثالاً للتوحيد والتثليث . وهو احسن واقوى . وابتدانا من اليسار الى اليمين . اي ان اعتمادنا بالثالوث الموحد نقلنا من حزب اليسار الى حزب اليمين . وقد قال قوم ان هـذا الصليب اشارة الى ان المسيح نزل من السماء الى الارض ونقل المؤمنين من حزب اليسار الى حزب اليمين . وسيدنا ومخلصنا عندما اكمل كل تدبيره أمال رأسه وهو على الصليب الى ناحية اليمين[1] . »

ولابي شاكر ابن الراهب من كتبة الاقبـاط مسئلة في رسم الصليب قال فيها :

« اختلف المؤمنون في الرسم به . فقوم منهم رشموا باصبع واحدة وابتدأوا من العلو الى السفل ومن الشمال الى اليمين وهم اليعقوبية . وغرضها في ذلـك الايمان بمسيح واحد على الصليب . خلصهم بصليبه . ونقلهم من جهة الشمال التي هي الخطيّة الى ناحية اليمين التي هي المغفرة . ومحل النعمة حيث يكون سيدهم[2] »

وفي « كتاب البرهان على صحيح الايمان » لاحد النساطرة . كلام على التصليب باصبع واحدة قال فيه :

« اعتمدت اليعقوبية في رسم الصليب باصبع واحدة اشارة الى ان الجوهر الالهي الذي من صفاته ان لا يُدرك . ولا يحول . صار بالاتحاد بالجوهر الانساني جوهراً واحداً . وهذا اعتقاد ظاهر الفساد[3] . »

وقـد اشار بعض حجاج بيت المقدس قديماً في معرض كلامهم على يعاقبة القدس الى طريقتهم في التصليب . واخبروا انهم « انما يرتسمون باصبع واحدة ليعلم الناس انهم لا يعتقدون الّا بطبيعة

(١) كتاب السنن التي انفردت بها القبط الارثذكسيين عن كافة المؤمنين والهراطقة المخالفين . باريس رقم ١٥٨ ص ٢

(٢) كتاب البرهان في القوانين المكملة . والفرائض المهملة . خزانة الفاتيكان رقم ١٠٤ ص ٤٣ــ٤٤

(٣) خزانة الفاتيكان رقم ١٨٠ ص ١٥٥ــ١٥٦

واحدة في المسيح[1] .» ونقل احد رهبان الفرنسيسكان الذي قضى في فلسطين عدة سنوات . رأياً في تفسير اختيـار السبّابة أوضح فيه رأي اليعاقبة حسبما رويناه آنفاً من كلامهم . وقال ان بالتصليب بالسبابة اشارة بعُقَدهـا الثلاث الى اقانيم الثالوث . وهو تفسير لا لا يخلو من الفطنة . ولكنه نسب هذه العادة خطأً الى النساطرة بدلاً من اليعاقبة[2]

وفي كتاب النحلة للبطريرك مكاريوس الزعيم . شرح وجيز في رسم الصليب . ذكر فيه ان اول من ابتدع التصليب بالسبابة والانتقال بها من اليسار الى اليمين . كان بطريرك انطاكية بطرس القصّار المشهور (في القرن الخامس للميلاد) قال :

« وتبع هـذه الضلالة انسطاسيوس الملك المخالف والزم المسيحيين بان يعملوا هكذا وكثيرين من القديسين لم يوافقوه على ذلك[3] »

وفي هذه الرواية وما خالفها من دعوى انبا ميخائيل اسقف دمياط ان الاقباط ومن شايعهم في المعتقد . ما فتئوا منذ تنصَّروا يخطّون الصليب بالسبابة . محلّ للنظر . لانه لم يثبت الى اليوم ان التصليب بشكله كان منذ انشاء النصرانية . ولا شك انه سبقه التصليب على الفم والجبين . وهو كاليوم كان يُصنع بالإبهام . ولعل في قول خالد بن يزيد « تخطّ رجال بين اعينهم صُلبا » اشارة الى هـذه العادة . وقد نبّه القديس غريغوريوس الكبير عـلى ان الارتسام

(1) *Voyage du Seigneur de Villamont* (en 1589) Rouen 1618, p. 127.
(2) Fr. Eugène Roger. *La Terre Sainte* Paris, 1664, p. 122.
(٣) كتاب النحلة المخطوط في خزانة كلية القديس يوسف في بيروت رقم ١٤١١ ص ١٦٠

كان بطريقتين . بالاصبع وباليد[١] . فالتصليب بالاصبع الواحدة قديم اذن دون محالة . سبق زمان بطرس القصّار

وكان الموارنة قديماً يصلّبون بالسبابة . ولما بدأوا يقلّدون اللاتين في كثير من مصطلحات الطقس الغربي انتحلوا عادتهم في الارتسام بالاصابع الخمس . ولا شك ان المرسلين حسّنوا لهم هذه الطريقة لما في الاصبع الواحدة من مظنّة الدلالة على المشيئة الواحدة . ولعلّ هذا الانتحال كان في القرن السادس عشر[٢] . واقتدى بهم السريان الكاثوليك حين عدلوا عن مذهبهم اليعقوبي في القرن السابع عشر واختاروا التصليب اللاتيني الحديث بالخمس . بدلاً من السبابة . لاشارتها الى الطبيعة الواحدة . وسيمر بنا شاهد بان المرسلين اللاتين ولاسيما الفرنسيسكان . كانوا ينكرون غاية الانكار كل تصليب للشرقيين بغير الكف

ومن الخوارج الذين الِفوا التصليب بالسبابة البيالقة (Pauliciens) قيل ان مردة لبنان كانوا منهم[٣] . وروى القس دانيال بن الخطاب السرياني المارديني ان الارمن

« كانوا يرسمون الصليب بالاصابع الثلثة . . . ومع ذلك فانهم في جميع اسرارهم مثل القرابين والعماذ ورسم المورون . لا يرسمونه الا بالاصبع الواحدة ومن الجانب الايسر الى الايمن . ما عدا وقت الصلاة فقط[٤] »

وهو قول يحتاج الى تحقيق

(1) St Grég. Dialog. L. I, C. XII, P. L. t. LXXVII, col. 212. — Dialog. L. II, C. III, P. L. t. LXVI, col. 135 (*Dict. d'Arch. et de Lit. Chr., col. 3143*)

(٢) طالع كتاب التعليم المسيحي على جاري عادات كنيسة رومية الذي يلزم علمها وحفظها لكل المؤمنين بالمسيح . رومة ٧ نيسان ١٥٨٠

(3) F. Chalandon, *Essai sur le Règne d'Alexis Ier Comnène*, p. 76-77

(٤) اصول الدين وشفاء قلوب المؤمنين . اكسفرد Hunt. 579

وقد اضطرب كلام اليعاقبة خصوصاً من الاقباط والسريان في كلامهم على تصليب الفِرَق الاخرى . فلا يخلو من خطاٍ وتخليط كما سنبيّنه قريباً

التصليب باصبعين

من الغريب ان الاقبـاط والسريان والنساطرة . كانوا يتهمون الروم البيزنطيين والملكيين بالتصليب باصبعين . ويحتجون عليهم لاختيارهم هذه الطريقة . وعدّ احد الاقباط ايضاً النساطرة والافرنج في جملة اشياع الاصبعين . جهلًا منه دون شك . قال انبا ميخائيل اسقف دمياط :

« كنت قد تحدثت مع احد اصحابنا الملكية في الصليب باصبعين وسألته عن
« السبب فيه فذكر ان رجوعهم في ذلك الى صورة سيدنا ومخلصنا يصلّب باصبعين
« وان قصدهم بالاصبعين الاشارة الى الطبيعتين وان المسيح بهما اله تام خالق .
« وانسان تام مخلوق . ذو طبيعتين وارادتين ومشيئتين . وان ابتداهم من اليمين
« الى اليسار ان بالصليب يطردوا الشيطان[1] »

وقال ابن الراهب

« وقوم اخرين من المومنين رشموا بالاصبعين وابتدوا ايضاً من العلو الى السفل
« ثم من اليمين الى الشمال وهم الملكية والنسطورية . وغرضهم في ذلك الايمان
« بوجود اللاهوت والناسوت جميعاً على الصليب بغير افتراق . وان الخلاص كان
« بذلك بظهور الايمان من الجانب الايمن الذي هو الهداية . ودفع الكفر الى
« جانب الشمال الذي هو الضلالة . وقوم اخرين منهم رشموا بالاصبعين وابتدوا
« من العلو الى السفل . ثم من الشمال الى اليمين وهم الفرنج . فكانوا موافقين

(١) كتاب السنن التي انفرد بها القبط الارثوذكسيين . باريس رقم ١٥٩ ص ٧

« للروم والنسطور في الرسم بالاصبعين . وموافقين ايضاً لليعقوبية في الابتدا من الشمال
« الى اليمين[1] »

ولا يخفى ما في ذلك من الغلط والخبط

وقال صاحب « كتاب البرهان على صحيح الايمان » لاحد النساطرة:

« اعتماد الملكية على الرسم باصبعين اشارة الى بقاء الجوهرين بحالهما . بعد ان
« دخل عليهما الخلل (كذا) وتغير خاصيتهما . وهذا ايضاً مستحيل ان يبقى
« الجوهر بحاله على تغير خاصيته[2] »

ولم يبلغ احد من خصوم الطبيعتين والاصبعين ما بلغه القس دانيال ابن الخطاب السرياني في الحذلقة والتنطع في الجدال والانتقاد حيث قال:

« واما الذين يرسمون الصليب بالاصبعين فعليهم مآخذ عديدة . احدها منع
« الاتحاد رأساً . وهو ان الاصابع واحدة بالكيان مختلفة بالقنوم . والثاني ان
« الاصابع متساوية بالكيان . فالذي يرسم بالاصبعين يجعل اللاهوت مساوياً
« للناسوت . والخالق للمخلوق . والثالث انه يساوي اللاهوت الازلي والناسوت .
« لان طبع الاصابع واحد لا غيار فيه . والرابع انه ينسب الوحدة الى الكيان .
« والكثرة الى الاقانيم . لان كيان الاصابع واحد واقانيمها كثيرة . والخامس انه
« يوجب دخول الآلام على اللاهوت . لان رسم الصليب هو عبارة عن آلام مولانا .
« فهذه الاغاليط الداخلة على الروم[3] »

ولا نظن بعد هذا الاحتجاج المضحك ان رسماً آخر في النصرانية حمِّل ما تحمله رسم الصليب على بساطته من شعبذة اهل الكلام واستنباط اصحاب التأويل

وقد قلَّد المسلمون الاقباط في نسبة التصليب باصبعين الى

(١) كتاب البرهان في القوانين المكملة . الفاتيكان رقم ١٠٤ ص ٤٣ـ٤٤
(٢) نسخة الفاتيكان رقم ١٨٠ ص ١٥٥ـ١٥٦
(٣) اصول الدين . خزانة اكسفرد Hunt. 579

الروم . والحقيقة التي لا يخامرها اقل ريب . ان اتباع الكنيسة البيزنطية . ما فتئوا يرسمون الصليب الى اليوم بالاصابع الثلاث . اشارة الى سر الثالوث الاقدس . وانما دخل الوهم على اليعاقبة والنساطرة من عدم تمييزهم بين طريقة التصليب وطريقة «المباركة» في الطقس الملكي . وكل من له اقل المام بمصطلحات الكنيسة . لا يجهل ان «البركة» ترسم دائما بوضع الابهام فوق البنصر والخنصر . بحيث تبقى السبابة والوسطى مبسوطتين وحدهما كما يرى هذا



. . ة المدس ، سوريوس الكبير وهو بارك

الشكل بعينه في كثير من المخطوطات والصور القديمة . ككتاب الانجيل مثلًا الموقوف على كنيسة يوستينة وقبريانس بدمشق . المحفوظ في خزانة باريس رقم ٢٤٢ Supl. Grec ص ٢ و٣٧ و٩٠ ونسخ عديدة غيره من المصاحف الدينية . وقد مثّلنا في الصفحة السابقة صورة القديس غريغوريوس الكبير وهو يبارك على هذه الطريقة نقلًا عن الصورة التي صنعت في رومية اثناء حياته

ومما يشهد بغلط اليعاقبة ما نقلناه سابقاً من قول انبا ميخائيل القبطي « ان رجوع الملكية في ذلك الى صورة سيدنا ومخلصنا يصلب باصبعين » وقد فات اسقف دمياط على جلالة رتبته . ان المسيح لا يصلّب ولكن يبارك

ويؤخذ من شهادة البطريرك مكاريوس الزعيم الانطاكي انه قام في زمانه . اى في النصف الثاني من القرن السابع عشر . كاهن سربي في جبل اثوس . جعل يدعو الناس الى التصليب على شكل « المباركه » اى بوضع الابهام على البنصر والخنصر بدلاً من السبابة والوسطى[1] وبترك هاتين الاصبعين مبسوطتين . وهو ما يوهم في بادئ النظر ان التصليب هو باصبعين كما ظن اليعاقبة قبلًا والنساطرة . ولكنه في الواقع تصليب بثلاث اصابع مضمومة قام فيه الاصبعان الاخيران مقام الأولين

التصليب بثلاث اصابع

هو الشكل القديم الذي عم الكنيستين الشرقية والغربية قبلًا .

---

(١) كتاب النحلة خزانة كلية القديس يوسف بيروت رقم ١٤١١ ص ١٦٠

ولا تزال تخطّه الى اليوم ايدي ما ينيف عن ١٥٠ مليوناً من اتباع الكنيسة البيزنطية . وهو اصدق الاشارات واتمها مطابقة لسرّ الثالوث الاقدس . وجرى عليه الأرمن ايضاً . ولذلك عابه عليهم القس دانيال بن الخطاب السرياني فقال بجذلقته المعهودة :

« هذا عين الغلط لان الذي باشر الصليب ليس الا احد الاقانيم المتحد بالجسد « فكيف يتصوّر دخول الصلب على الثالوث المقدس[1] »

وقد شارك اليعقوبيّ في تخطئة هذا التصليب والتشدد في انكاره . ووَعَظ الناس في الكنائس للعدول عنه واطّراحه . راهبٌ مرسل من رهبان الفرنسيسكان في حلب سنة ١٦٤٣ وهذا نصّ احدى عظاته في هذا المعنى . وقفنا عليها في خزانة الفاتيكان في مخطوط له دعاه « كتاب مواعظ شريفة والفاظ عالية منيفة » ولا نتمالك من نقلها بتمامها بالحرف الواحد لحلاوتها ومرارتها معاً . قال بركاكته ورطانته :

« العظة الرابعة تتضمن شرح ما ينبي عن اشارة الصليب المقدسة يعني . بسم « الاب والابن والروح القدس الاله الواحد »

سؤال : لكن ان كان انتم تسألوني قائلين يا معلم لاي سبب بعض النصارى وقتا ما يصلبون عليهم يمرون من اليمين الى اليسار قائلين باسم الاب والابن والروح القدس . وبعض اخرين بالمضاددة يعدوا من اليسار الى اليمين

جواب : انا اقول لكم اولاً . ان اليسار هي عاجزة وغير كاملة في افعالها واشغالها لاجل ذلك هي تومي لنا خيرات زايلة وبغير كمال في هذا العالم . واما اليمين التي هي اقوى . والمالكة في افعالها واشغالها . تومي لنا ثبات وكمال الخيرات السماوية

ثانياً . اليسار تومي حال الخطاة والمغضوبين عليهم في نار جهنم . ولاجل هذا

---

(١) اصول الدين . خزانة اكسفرد Hunt. 571 دون رقم

المسيح بعينه بفم مار متى قال انه يقيمهم كالجداء عن يساره . واما اليمين تومي حال المنقوذين والمختارين الى لذات الجنة الذين حينئذٍ يقيمهم مثل الخراف عن يمينه ثم اقول لكم . ان لما الكهنة يعمدون الاولاد يرسمونهم باشارة الصليب المقدس حينئذٍ يعبرون من يسار المسيح الى يمينه . ولما يقعون في الخطية المميتة ولاسيما في الانشقاق من الكنيسة الكاثوليكية . ومعصية وكيل المسيح . وفي الهراطيقيات يرون كلهم جديداً من اليمين الى اليسار المذكور اعلاه . فاخيراً اجيبكم قائلًا ان قوماً من النصارى لما يصلبون عليهم ينقلون من اليمين الى اليسار حتى نعرف انهم لاجل خطاياهم المفعولة ينطلقون من يمين الامور الدائمة الى يسار الامور الفانية . ومن نعمة ومحبة الله الى غضبه . ومن بركته الى لعنته . واما الناس الكاثوليكيين الصالحين وبني الطاعة اذ يصلبون على وجوههم بالمقابلة فينطلقون من اليسار الى اليمين لكي يظهر انهم بصليب وآلام المسيح . وافعالهم الصالحات يُعدّون من يسار الامور الفانية الى الدائمة . ومن الخطيئة الى النعمة . ومن اللعنة الى البركة . ومن الموت المؤبد الى الحياة الابدية

فاسمعوا مني يا اولادي المختارين . واتركون المخالفين والهراطقة . وان كان تتعمدون من الكاثوليكية وتعتقدون بايمانهم المقدس فاتبعونهم ايضاً واتحدون معهم في كل شيء لاسيما في اشارة صليبهم . وفي افعالهم الصالحة . لانكم هكذا في يوم الدين تقفون عن يمين المسيح[1] »

كذا كان بعض غُلاة المرسلين الافرنج يخاطبون الروم في كنائسهم وفي عُقر ديارهم . ويعظون بينهم بمثل هذه « العظة الشريفة والفاظها العالية المنيفة » دون ان يروا اقل حرج في اخراجهم من « محبة الله وبركته الى غضبه ولعنته » من اجل اشارة واحدة بالكف . يُقصد بها مجرد التعبد والتبرك . سواء أإتجهت من اليمين الى اليسار ام اليسار الى اليمين . وهي ليست من اركان الدين في

(١) كتاب مواعظ شريفة . والفاظ عالية منيفة . تأليف الحقير في الرهبان فرنتيسكوس الكاهن يومئذٍ بمدينة حلب . الفاتيكان رقم ٥١٢ ص ٢٢ و ٢٦

شيء . ومن هذا المثال يتبين للقارئ النزيه عن كل هوى . كم كان بعض المرسلين يجهلون تاريخ الشرق والكنائس التي بُعثوا اليها فضلًا عن آداب الوعظ والاقناع . بل انهم كانوا يجهلون ايضاً حقيقة ماضي تاريخ كنيستهم اللاتينية نفسها في القرون السالفة . ولو تعلّم هذا الراهب قبل مصيره الى الشرق . لعلم انه بقضائه على الكنيسة البيزنطية . لايثارها اليمين على اليسار . قد قضى ايضاً على الكنيسة اللاتينية في عصورها السابقة . واقصاها كما يقول « من رحمة الله وبركته الى نقمته ولعنته » لانها كانت تصلب قبلًا بالاصابع الثلاث وتنتقل بها من اليمين الى اليسار . كما صرّح بذلك البابا اينشنسيوس الثالث نفسه في كلامه على سر المذبح الاقدس . وهذا لفظه بحرفه باللاتينية كما جاء في خزانة الآباء اللاتين لجامعها مين

QUOMODO SIGNUM CRUCIS SIT EXPRIMENDUM

Est autem signum Crucis tribus digitis exprimendum, quia sub invocatione Trinitatis imprimitur, de qua dicit Propheta : *Quis appendit tribus digitis molem terræ ?* (Isaie, XL, 12) ita quod a superiori descendat in inferius, et a dextra transeat ad sinistram, quia Christus de cælo descendit in terram, et a Judaeis transivit ad gentes. Quidam tamen signum Crucis a sinistra producunt in dextram, quia de miseria transire debemus ad gloriam, sicut et Christus transivit de morte ad vitam, et de inferno ad paradisum, præsertim ut seipsos et alios uno eodemque pariter modo consignent. Constat autem quod cum super alios signum Crucis imprimimus, ipsos a sinistris consignamus in dextram. Verum si diligenter attendas, etiam super alios signum Crucis a dextra producimus in sinistram, quia non consignamus eos quasi vertentes dorsum, sed quasi faciem præsentantes[1].

وهذا تعريب الفصل بتمامه :

(1) Innocent III, *De sacro Altaris mysterio*, livre II, chap. XLV. (*Patrol. Lat.* t. 217, col. 825).

« يجب ان يُرسم الصليب بثلاث اصابع لانه يُشار به الى سر الثالوث الذي اومأ اليه النبي بقوله (اشعيا : الاصحاح الاربعون من التوراة طبعة مجمع نشر الايمان سنة ١٦٧١) « من علق بثلث اصابع جرم الارض » وهذا الرسم يكون بالابتداء من العلو الى السفل . ثم بالاتجاه من اليمين الى اليسار . لان المسيح نزل من السماء الى الارض ثم انتقل من اليهود الى الوثنيين . وبعضهم يرتسمون بالاشارة الى اليسار ثم الى اليمين . لاننا ننتقل من اكدار هذه الدنيا الى المجد كما انتقل المسيح من الموت الى الحياة . ومن الجحيم الى النعيم . وعلى هذا الوجه يكون التصليب واحدًا على انفسنا وعلى غيرنا . لانه لا يخفى اننا اذا رسمنا الصليب على غيرنا نذهب به من اليسار الى اليمين . ولكننا اذا تأملنا . يتضح لنا اننا في الواقع نتجه من اليمين الى اليسار . لاننا اذا صلّبنا على من امامنا نشير اليه وجهاً ازاء وجه وليس من خلفنا[1] »

ولا يخفى قدر هذه الشهادة الكبرى من قلم رأس الكنيسة لاثبات صحة طريقة التصليب البيزنطي . وانها كانت الى القرن الثالث عشر شائعة في الكنيسة اللاتينية نفسها قبل ان تعمّ فيها طريقة الارتسام بالكف . والانتقال بها من اليسار الى اليمين . وهذه حقيقة تاريخية لا يزال يجهلها غير واحد من المرسلين في الشرق

ومما يؤيد ايضاً شهادة البابا . وان كانت غنية عن كل تأييد . ما رواه انبا ميخايل القبطي من اساقفة القرن الحادي عشر « ان الفرنج يصلبون بثلاثة اصابع الابهام والسبابة والوسطى . يقصدون الثالوث[2] »

(١) يقول هذا لانه في الكنائس الجامعة الرومانية القديمة كان الكاهن يقدّس وهو مواجه للشعب

(٢) كتاب السنن التي انفردت بها القبط الارثوذكسيين . باريس رقم ١٥٨ ص ٢

التصليب بالاصابع الخمس

شاع في الكنيسة اللاتينية كما تقدم بعد القرن الثالث عشر • واختاره الموارنة والسريان الكاثوليك من الشرقيين تقليداً للافرنج منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر • وقد وهم ابن الراهب القبطي بدعواه ان الفرنج يرتسمون بالاصبعين حسبما سبق لنا ايراده من لفظه . واغرب من ذلك حكاية بعض كتبة الاسلام عنهم انهم يصلبون بالخمسة والعشرة[1] . ولا ندري ما الذي رأوه من اشارات الصليبيين حتى نسبوا لهم استعمال اليدين معاً في التصليب • وفي بعض مخطوطات الاقباط الماع الى هذا الاصطلاح . اضطرب فيه كلامهم فلم نرَ فائدة من نقله هنا

ويؤخذ من شهادة النساطرة انفسهم انهم كانوا يصلبون بالكف اي بالاصابع الخمس . وهو قول صاحب كتاب البرهان بعد انتقاده طريقة التصليب بالاصبع والاصبعين :

« وبقي اصحابنا المشارقة في التصليب باليد كاملة على الرسم القديم لما يوجبه الشرع الذي لم يتوجه فيه تغير . ولا دخل عليه عرض عارض[2] »



(١) المنقذ من الضلالة للشيخ محمد بن عبد القادر الشهير بابن الصلف المحلي المالكي . باريس ٥٠٤٩ ص ١٢١

(٢) البرهان على صحيح الايمان نسخة الفاتيكان ١٨٠ ص ١٥٦

قول المسلمين ان الصليب احق بالاطراح والمقت

لارباب الجدل في الاسلام. آراء شتى في الصليب خرج فيها كثيرون منهم من المناظرة الى المهاترة . وهم الذين عناهم عبدالله ابن اسمعيل الهاشمي بقوله في رسالته المشهورة حين وصف مناظرتهم « كمناظرة الرعاع والجهّال والسقّاط والعوامّ والسفهاء من اهل ديانتنا الذين لا اصل لهم ينتهون اليه . ولا عقل فيهم يعولون عليه. ولا دين ولا اخلاق تحجبهم عن سوء الادب . وان كلامهم العَنَت والمكابَرة والمغالبة بسلطان الدولة بغير علم ولا حجة[1]»

فلا حاجة اذن ان نتعرض لذكر اقاويلهم لما في حكايتها من الخطَل والإملال. ولكنا نجتزئ برواية الغريب منها . وهو ما وجدناه في مخطوطين في خزانتَي باريس والفاتيكان. ننقله على سبيل النكتة والمحاضرة لعلاقته بما تقدّم

قال شهاب الدين احمد بن ادريس القرافي المالكي المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة (١٢٨٥ م):

« ان النصارى عظموا الصليب غاية التعظيم حتى صوروه في كنائسهم. وطبعوه على اجسامهم واثوابهم وقربانهم . ولو امكنهم ان لا يُخلوا منه مكاناً الا جعلوه فيه . فعلوا . ومنهم من يحلب على وجهه بالاصبع الواحدة وهم القبط . وباصبعين وهم الروم . وبالعشرة وهم الفرنج . وهو شيء لم يجدوه في كتاب من الكتب ولا في شريعة من الشرائع . بل ابتدعوه بارائهم الفاسدة وعقولهم السقيمة بل العاقل يهان غلاه» أيسر الاهانة فيود لو نسيت تلك الاهانة . وعفيت اثارها

(١) رسالة عبد الله بن اسمعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندي. طبعة لندرة ١٨٨٥ ص ١١ـ١٢

تعظيماً لقدره. وقدر غلامه. فكيف باهانة ربه على زعمه. تلك الاهانات العظيمة المتنوعة. فلو كانوا عقلاء محوا آثارها. واهملوا شعارها ... فان تخيّل لهم بعقلهم الفاسد ان الصليب ينبغي ان يُعَظَّم لكون الرب صعد منه الى السماء فهو فاسد. وان قاله كثير منهم. لانه عندهم دفن بعد الصلب بثلاثة ايام. وصعد من القبر الى السماء. فالقبور اذن اولى بالتعظيم

وان كان لا بد من هذا الباب ففي الاناجيل ان المسيح عليه السلام ركب الحمار عند دخوله المدينة وبين يديه الصبيان ينادون « مبارك الآتي باسم الرب » فركب الحمار في حال تعظيمه. والصليب في حال اهانته. فينبغي لهم ان يعظموا الحمير ويضمّخوها بالعبير. ولا يركبوها صيانةً لمركب المعبود عن ملابسة العبيد. وهي افضل من الصليب. لانها حيوان وهو جماد. وأين آثار السعادة من آثار الاهانة والانكاد[1] »

وقال محمد بن عبد القادر الشهير بابن الصلف المحلي المالكي. ونقل اكثر ما سبق:

« فضيحة اخرى للنصارى. عيد يعرف بعيد الصليب لا اصل له البتة. وانما احدثوه بعد رفع المسيح. كعيد ميكائيل وعيد النور وغيره ... فنقول لهم اخبرونا بما استحق الصليب عندكم هذا التعظيم حتى صرتم تقبلونه وتصلّبون على وجوهكم. فمنكم من يصلب على وجهه باصبع واحدة. وهم القبط. ومنهم باصبعين وهم الروم. ومنهم بالخمسة والعشرة وهم الفرنج. فهذا دين نقلتموه عن الانبياء واخذتموه من شرائع الرسل. فأرونا ذلك في توراة موسى. ونبوات شعيا وارميا ومزامير داود عليهم السلام. وقد كان الصليب لو كنتم تعقلون حقيقاً بالمقت والبغض. فان قلتم شُرِّف بصعود المسيح عليه. قلنا فلمَ لا تعظمون الحمير وتقبلونها وتسجدون لها. لان لوقا وغيره اخبر ان المسيح عليه السلام ركب حماراً عند دخوله المدينة والصبيان بين يديه ينادون « مبارك الآتي باسم الرب ». فكان ركوبه في حال تعظيمه. اولى بالتعظيم من ركوبه الصليب في حال تصغيره واهانته[2] »

(١) الاجوبة الفاخرة باريس ١٤٥٦ ص ٣٢ والفاتيكان رقم ٢٤٣ السؤال ٥٢ وفي نسخة باريس ان المؤلف هو احمد بن درويش. وفي كشف الظنون احمد بن ادريس

(٢) المنقذ من الضلالة. التباعد لاحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالرسالة. باريس ٥٠٤٩ ص ١٢١

حسن رأى بعض المسلمين فى الصليب

وتبركهم به وتعظيمهم اياه

يُستفاد من رسالة عبدالله بن اسمعيل الهاشمي وجواب عبد المسيح بن اسحق الكندي عليها ان بعض المسلمين كانوا يستعيذون احياناً بالصليب. اما لحسن اعتقادهم في قدرة المسيح كلمة الله الذي هو ممثل له. واما على سبيل التجربة والامتحان للنعمة الحالّة فيه الصادرة عنه في مذهب النصارى. وكان الهاشمي قد كتب للكندي في رسالته المذكورة :

« دع ما انت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء. وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكره. وهو قولكم بالاب والابن والروح القدس. وعبادة الصليب التي تضر ولا تنفع. فاني اربأ بك[1] عنه واجلّ فيه علمك وشرف حسبك عن خساسته »

فاجابه الكندي بما يتحصل منه ان الهاشمي كان قد جرّب قوة الصليب واستغاث به يوماً حين وقع من الدابة. وهرب من بعض اعدائه. ولقي مرة الاسد في طريقه. ففاز بمعونته بالنجاة والسلامة. كما اقرّ بذلك بفمه في مجلس حضرهُ الكندي وجرى فيه الكلام والحجاج في هذا الشأن. وهذا لفظ الكندي نرويه بتمامه لخطره وجلالة شهادته ودلالته على آراء القوم في ذلك العهد قال :

« واما قولك « عبادة الصليب التي تضر ولا تنفع » لما رأيت

(١) في الاصل المطبوع ارتابك وهو غلط ظاهر

من تعظيمنا اياه . وتقبيلنا له . وتبركنا به . فنجيبك عنه قائلين انا نفعل ذلك للذي مُثِّل لنا فيه من امر المسيح وما جرى به تدبيره في خلاصنا . واستنقاذنا من الهلكة باحتماله الصلب عنا والموت لاجلنا . فان النعمة عندنا في ذلك مما لا يبلغه منا وصف . ولا يفي به شكر . والصليب ممثّل هذه النعمة نصب اعيننا . يحثنا على شكر موليها والمنعم بها . واليه نقصد بالتعظيم والتبجيل لا الى الخشب وغيره مما نصنع منه الصلبان . ولو كنا نعظم الخشب كما توهمت لما اتخذنا الصليب من غيره . ولكنا نتخذه من الخشب والذهب والفضّة والحجارة والجواهر وغيرها . ونخطّه خطاً . ونرسمه بأيماننا . وذلك دليل على اننا لا نقصد بالتعظيم الجواهر التي تتخذ منها الصلبان بل من هو مُمثَّل بالصليب ...

« لِمَ اصلحك الله غلب عليك النسيان في هذا الموضع . وحركتك العصبية الهاشمية فأزاغَتْك عن سبيل الحق . وحادت بك الى خلاف ذلك السبب الذي انت اقررت به بفمك . ولفظ به لسانك . مما جرّبت من القوة الحالّة في الصليب حين استعَذْت به عند سقوطك عن الدابة . وحين هربت ممن هربت منه . وحين لقيت الذي لقيت في طريقك وانت ماضٍ الى عُمْر الأُكَيْراح(١) . وحين لاقاك الاسد وقت قاربت ساباط المدائن . افتُراك اصلحك الله نسيت هذه المواقف . فان كنت نسيتها . فنحن ذاكرون لها . فلِمَ اصلحك الله تكفر بالنعمة . وتكافئ بالشر . وتقل من الشكر . وتنكر

(١) في الاصل المطبوع « عمر الكرح » والصواب ما اثبتناه وهو دير معروف في العراق

المعروف . وليس هـذا مذهب من هو مثلك من اهل التحرّج[1] والتمسك بالصدق . ولِمَ قلت ان عبادة الصليب تضر ولا تنفع . فليت شعري أيّ ضررٍ نالك عنـد تعوذك بالصليب . وانت تعلم انا معشر النصارى لا نعبد الصليب . وانمـا نعبد القوة الحالة في الصليب . والتأييد الذي أيدنا به . والخلاص الذي أُوتيناه بسببه . أَلَمْ يجرِ بيننا من الكلام والمحاجّة بحضرة من جرى ما قد اقنعك . وتعلم كيف كان الحكم عليك في ذلك المجلس . فلِمَ رجعت عما كان صحّ عندك . واقررت بصوابه . حتى ذكرت انك امتحنت ذلك فوجدته صحيحاً[2] »

ولا بأس ان ننبه هنا الى أن هذه المناظرة بين الهاشمي والكندي هي حقيقية . شهد بصحتها الامام البيروني في كتابه الآثار الباقية وليست موضوعـة ككثير من المناظرات المخطوطة والمطبوعة . فالاستناد اليها والاستدلال بها حجة لا تدافع وبرهان لا يمانع

واشهر من كان يميل الى النصارى في عهد العباسيين . ويساعد على اظهار الصليب في الاعلام . واتخاذه في الكنائس . زبيدة بنت جعفر امرأة هرون الرشيد وام الامين . قيل « كانت تكرّم طيموثاوس (جاثليق النساطرة) كثيراً وتميل الى النصارى وتستخدمهم . واخرجت توقيع الرشيد باعادة المتهدم من دير مار فثيون وتوسيعه . وعملت اعلام الشعانين وصلباناً من ذهب وفضة . وعاونت سرجيس

(١) في الاصل المطبوع التخرج بالخاء وهو تصحيف

(٢) رسالة الهاشمي الى الكندي . طبعة لندرة ص ٢٠٧ـ٢١١

مطران البصرة على بناء البيع فيها . وعضدت جبريل الطبيب في خطابه في ذلك[١] »

وممن جارى النصارى في تعظيم الصليب. والتكفير له احياناً. ايهاماً لحسن رأيهم فيه وقبولهم اياه . بعض المترددين من المسلمين على الديارات . طلباً للنزهة وشرب الصهباء . ولاسيما بعض خلعاء الشعراء. كالشاعر الكندي المنبجي حين مرّ بدير مار ماعوث فقال:

ولقد سلكت مع النصارى كل ما سلكوه غير القول بالثالوث
بتناول القربان والتكفير للصلبان والتمسيح بالطيبوث[٢]

ومثله قول عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع :

اقمت بالدير حتى صار لي وطناً من اجله ولبست المُسح والصُّلُبا
وصار شماسه لي صاحباً واخاً وصار قسيسه لي والدًا وأبا[٣]

وكان بعض اسالمة النصارى لا يَدَعون تكريم الصليب والتبرك به في الخلوة في منازلهم. ومنهم آل سليمان بن وهب الذين اشتهروا بالوزارة في الخلافة العباسية . قيل ان احدهم وهو الحسين بن القاسم بن عبدالله « كان يتقرب الى النصارى الكتاب بان يقول لهم « ان اهلي منكم واجدادي من كباركم ». وان صليباً سقط من يد عبدالله بن سليمان جده في ايام المعتضد . فلما رآه الناس .

(١) اخبار بطاركة كرسي الشرق ص ٧٣ طبعة رومة

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٧٠١ طبعة اوربة . والطيبوث لفظة سريانية معناها في الاصل النعمة . ولكن يراد بها ههنا « الحَيْل » وهو الدهن السائل من بعض الايقونات . كذا افادني ذلك غبطة مار اغناطيوس افرام برصوم بطريرك السريان بحمص المعروف بسعة الاطلاع

(٣) كتاب الديارات للشابشتي . برلين ص ٢٥

قال هذا شيء تتبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم[1]»

ولما كانت تقع الهُدَن بين الروم وبين المسلمين . كان ملك الروم يُنفذ الى من جاوره من ولاة المسلمين صليباً من الذهب . وفاء بالعهد . قال ابن العديم : « في سنة اثنتين وعشرين واربعمائة (١٠٣٠ م) طلب نصر بن مرداس (صاحب حلب) الهدنة من ملك الروم . فاطلق الملك مقلّد بن كامل بن مرداس رسول نصر واعطاه صليباً من ذهب مرّصعاً . اماناً لنصر . ووفاء بالشرط[2]»

وذكر يحيى بن سعيد الانطاكي في اخبار سنة ٣٨٩ للهجرة (٩٩٩م) ان والي شيزر من قِبَل الحاكم بامر الله . وهو ابن كراديس « التمس الأمان من ملك الروم . واشرط عليه انه لا يطأ له بساطاً عند خروجه من البلد . ولا يعترضه ولا لاحد من اصحابه ممن يختار المسير معه . فاجابه الى ذلك . وانفذ اليه صليبه[3]»

وممن اختار « الركوب تحت الصليب » على الرضى بالذل في في ولايته خوفاً من العزل . وجيه الدولة بن حمدان التغلبي وهو القائل :

من كان يرضى بذلّ في ولايته خوف الزوال فاني لست بالراضي

قالوا فتركب احياناً فقلت لهم تحت الصليب ولا في موقف القاضي[4]

(١) صلة الطبري لعريب ص ١٦٤

(٢) زبدة الحلب ص ٦٦

(٣) تاريخ الذيل ص ١٨٣

(٤) الرابع من معجم الادباء لياقوت الرومي ص ٢٠٢ . ونسب هذين البيتين في الجزء الثاني ص ١٨٨ للامير ابي الحسن بن علي بن مقلّد . وروى عجز البيت الاول « من خوف عزل »

الصليب عنوان النصرانية وشعارها

رفع المسلمين الصلبان على المراكب مخادعة للافرنج

لما اشتد حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٦ للهجرة (١١٩٠ م) وقلّ ما بها من الميرة والسلاح . امر السلطان صلاح الدين « بان يُوسَق مركب عظيم من بيروت استُكثر فيه من السلاح والاقوات والمقاتلة . وأظهر عليه زيّ الفرنج وشعارهم . وأخذ قوم من اسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين فتركوا على ظاهر المركب . وأنزل معهم في المركب جماعة من المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج . وتزيوا بزيّ الفرنج . وحلقوا شعورهم . واخذوا معهم خنازير ورفعوا على قلع المركب صليباً . واوهموا الفرنج انهم واصلون اليهم نجدة من بلادهم . واقلعوا داخلين الى مرسى عكا . مسلّمين على الفرنج بلغتهم . مبشرين لهم بان وراءهم من المدد من تشتد به منّتهم . وتعتز به نصرتهم . فلم يرتَب المحاصِرون بذلك . وافرجوا لهم عن المرسى . فدخلوا الى عكا . واوصلوا الى المسلمين بها ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال . وتمت هذه الحيلة . وكانت من الفرص التي لا ينبغي ان تعاود[1] »

وبعد ثلاث وثمانين سنة من تمام هذه الخدعة . أُريد تجديدها في دولة المماليك فسارت شواني الثغور سنة ٦٦٩ للهجرة (١٢٦٧ م) تريد قبرس . وقد عمل ابن حسون رئيس الشواني في اعلامها الصلبان .

---

(١) زبدة الحلب لابن العديم ص ٢١٩

يريد بذلك ان تخفى اذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة . فكره الناس منه ذلك . فلما قاربت قبرس تقدّم ابن حسون في الليل ليهجم المينا . فصدم الشونة المقدمة شعباً . فانكسرت وتبعتها بقية الشواني فتكسرت . وعلم بذلك متملك قبرس . فاسر كل من فيها واحاط بما معهم[1] » .



(١) الخطط للمقريزي ج ٣ ص ٣١٥ ـ ٣١٦ طبعة سنة ١٣٢٤

نصب المسلمين الصلبان على الاسوار

واظهارها على الاعلام في الفتن ودعاؤهم للمسيح وللوك الروم

من اغرب مظاهر الفتن والثورات في عهد العباسيين . رفع الصلبان احياناً والانتماء لملوك الروم . ولعل اول من اظهرها على الرايات من قواد المسلمين . يعقوب بن الليث المشهور بالصفّار سنة ٢٦٢ للهجرة (٨٧٥ م)[1]: قال ابن شاكر الكتبي في اخبار السنة المذكورة :

« قدم يعقوب بن الليث في جحافل فدخل واسط قهراً . فانتدب له ابو احمد الموفق اخو الخليفة في جيش عظيم . فاقتتلوا الى رجب من هذه السنة . قتالاً عظيماً هائلاً . ثم كانت الغلبة على يعقوب واصحابه . فقتل منهم خلق كثيرون . وغنم منهم ابو احمد شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والمسك والدواب . ويقال انهم وجدوا في جيش يعقوب هذا رايات عليها صلبان[2] »

وفي سنة ٤١٦ للهجرة (١٠٢٥ م) ارسل المغاربة الذين في قلعة حلب يسألون الصلح من سالم بن مستفاد والي حلب من قِبَل صالح ابن مرداس « والتمسوا منه اشياء . فلم يرَ اجابتهم اليها . فلما كان آخر نهار ذلك اليوم . نصبوا الصلبان على سور القلعة . وصاحوا « باسيل يا منصور » (اي باسم ملك الروم) وحطوا الصلبان بعد

(١) تاريخ الطبري طبعة اروبة ص ١٨٩٥ T. S. III

(٢) الثاني من عيون التواريخ . الفاتيكان ٧٣٥ ص ٤٩

إشهارها . وبقوا يصيحون ليلتهم تلك الى الغداة . واعادوا نصب الصلبان في صباح يومهم . ولعنوا الظاهر (الخليفة الفاطمي بمصر) ودعوا لباسيل الملك . وبقيت الصلبان منصوبة على حالها الى يوم الجمعة ثالث يوم أشهروها فيه . واضافوا اليها صليباً آخر كبيراً[١] »

وذكر ابن العديم هذه الواقعة في اخبار سنة ٤١٥ واضاف الى ذلك انهم بعد ان نصبوا الصلبان ثلاثة ايام نقروا الناقوس ايضاً[٢]

وسرت هذه العادة ايضاً الى بغداد مقر الخلافة العباسية . ففي سنة ٤٢١ للهجرة (١٠٣٠م) كان الخراب قد شمل بغداد . لضعف الهيبة وتتابع المجاعة . فاجتمع الهاشميون في شوّال بجامع المنصور . ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس . فاجتمع اليهم الفقهاء وخلق من الإماميّة الرافضة . وضجوا ان يُعفوا من التُرك . فعمدت الترك . . . ورفعوا صليباً على رمح . وترامى الفريقان بالنشاب والآجر ثم تحاجزوا[٣] »

وفي سنة ٤٨٢ للهجرة (١٠٨٩ م) « في جمادى الاولى كثرت الفتن ببغداد بين اهل الكرخ وغيرها من المحالّ . وثار اهل الكرخ وقصدوا شارع ابن ابي عوف ونهبوه . وفي جملة ما نهبوا دار ابي الفضل بن خيرون المعدّل . فقصد الديوان مستنفراً ومعه الناس . ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير في حجرته . واكثروا من الكلام الشنيع[٤] » .

(١) تاريخ الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ص ٢٤٧

(٢) زبدة الحلب ص ٦١

(٣) الإعلام بتاريخ الاسلام لمحمد بن الجزري . خزانة الاسكندرية رقم ٢٠٧٢ ص ٣٨٥

(٤) العاشر من الكامل لابن الاثير ص ٦١

ونقل سبط ابن الجوزي هذا الخبر بمزيد بيان واهم شرح فقال: «في صفر سنة ٤٨٢ (١٠٨٩ م) كانت فتنة عظيمة ببغداد بين السنّة والشيعة ... فغُلِّقت اسواق الكرخ. ورفع اهلها المصاحف وقتل بينهم خلق كثير ... ورفع العامة الصلبان على القصب ونادوا «المستنصر يا منصور» (اي باسم الخليفة الفاطمي بمصر) ونادت الطائفة الاخرى «المسيح يا منصور» وتفاقم امر الفتنة. وقتل من الفريقين نحو من مائتين. وسبّ اهل الكرخ اصحاب رسول الله وزوجاته (رضهم). وتعدّوا الى سبّ رسول الله (صلعم). وكتب الخليفة الى صدقة بن مزيد. بانفاذ جيش فبعث اليه بالعرب. واتفقوا مع الشحنة. فنقضوا الدور. واحرقوا المحالّ. وحلقوا الشعور ونهبوا اماكن المفسدين من الفريقين. فسكنت الفتنة[1]»

ومن اغرب الخوارق ان يتفق فريقان متخالفان متناظران. على انتحال شعائر النصرانية في حالة الشغب والقتال. والنداء بالنصر للمسيح. ورفع الصليب وهو شعار الكفر كما قال المقريزي. وهذه النزعة العجيبة في مثل حاضرة الخلافة العباسية جديرة باسترعاء انتباه الناظر في تاريخ ماضي الاسلام

ويدخل في هذا الباب انحياز المسلمين الى خيمة الصليب. ووقوفهم تحته في الحروب التي كانت بينهم وبين الروم. وانتحالهم النصرانية طمعاً في اهليهم واموالهم. ففي سنة ٣٢٢ للهجرة (٩٢٢م) «سار الدمستق فوقاس في خمسين الفاً من الروم. فنازل ملطية وحصرها مدة طويلة. فهلك اهلها بالجوع. وضرب خيمتين على

(١) مجلد من مرآة الزمان. خزانة اكسفرد (Marsch. 658 f. 9)

احديهما صليب . وعلى الاخرى مصحف . وقال : من اراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليُرَدّ عليه اهله وماله . ومن اراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى . وله الامان على نفسه حتى يبلغ مأمنه . فانحاز اكثر المسلمين الى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في اهليهم واموالهم . وسيّر مع الباقين بطريقاً ليبلّغهم مأمنهم . وفتحها بالامان في مستهل جمادى الآخرة[1] »

وفي سنة ٣٥٤ للهجرة (٩٦٥ م) فتح نقفور (Nicéphore Phocas) طرسوس « ونصب رمحين جعل على احدهما مصحفاً وعلى الآخر صليباً . ثم قال لهم من اختار بلد الاسلام فليقف تحت المصحف . ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب . فخرج المسلمون . فحُزروا بمائة الف ما بين رجل وامرأة وصبي . وانحازوا الى انطاكية[2] »



(١) الاول من الأعلاق الخطيرة لابن شداد الحلبي . الفاتيكان ٧٣٠ ص ٢١٢ـ٢١٣

(٢) زبدة الحلب لابن العديم ص ٣٧ ـ ٣٨

اجناس الصليب ومعادنه

تقدم من كلام يعقوب الكندي ان الصليب كان فيما عدا الخشب . يتخذ من الحجر والفضة والذهب والجوهر . ولا شك انه اتخذ ايضاً من النحاس المكفّت او المطلي بالفضة والذهب . ومن العاج والزجاج وسائر المعادن . وقد اشتهرت بيعة ابي هور بسرياقوس في مصر بكثرة ما كان فيها من القناديل الفضة والصلبان الذهب[1]. ولما صادر الامير يَلْبُغَا الناصري قبل ان يُقتل سنة ٧٦٨ للهجرة (١٣٦٦ م) جميع النصارى والرهبان « استولى على كل ما في الديارات من الذخائر والآلات فحصل على شيء كثير جداً حتى يقال اجتمع عنده اثنا عشر الفاً منها صليب ذهب وزنه عشرة ارطال مصرية[2] »

وكثيراً ما وصف الشعراء الصلبان في اعناق الجواري والغلمان . ومنه قول عبدالله بن العباس بن الفضل في جارية نصرانية عَلِق بها . وكان لا يفارق البِيَع في الاعياد شغفاً بها

يتثنى بحسن جيدِ غزال وصليب مفضّض آبنوس
كم اشمت الصليب في الجيد منها كهلال مكلل بشموس[3]

ولعبد الله بن المعتز في وصف الراح

(١) مسالك الابصار للعمري ص ٣٦٠
(٢) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني خزانة مصر الملكية رقم ١٠٢ ج ٢ ص ٢٠٣
(٣) الاغاني ج ١٧ ص ١٢٩

من كف ظبي مُقَرطقٍ غَنِجٍ يعذرني من عليه يعذلني
تلوح صلبانه بلَبَّتِهِ كنور خِيريَّة على غصنٍ[١]

وقد اشتهر الاخطل الشاعر التغلبي بسلسلة الذهب التي كانت دائماً في عنقه . وفيها صليب ذهب . ولذلك قيل له ذو الصليب[٢]

واكثر ما كانت تصنع الصلبان التي كانت تحمل في الطواف في الاعياد والجنائز . من الفضة . وترفع على الرماح . وقد اشار اليها الحسن بن هانئ بقوله من قصيدته المشهورة :

وبالصُلُب اللجين وقد تبدّت وبالزنار في الخصر الدقيق[٣]

ولم نقف في كل ما طالعناه على نص واحد . ورد فيه وصف اشكال الصليب في الشرق . ولا نظن انها اختلفت كاختلافها في الغرب



(١) ديوان ابن المعتز رواية الصولي باريس ٣٠٨٧ ص ١١٧
(٢) القاموس للفيروزبادي
(٣) مسالك الابصار للعمري ص ٣٣٧

الصليب في الوسم والوشم والنقش

اعتاد العرب النصارى ان يَسِموا اجسامهم وإبلهم بشكل الصليب . ومنه قولهم بعير مُصَلَّب ومصلوب . اي سِمتُه الصليب . وقد عيَّر جرير[١] الاخطل بمثل هذه العادة فقال بلسانه البذيء :

لقد ولد الأُخيطلَ امُّ سوء على باب أستها صُلُب وشام[١]

وقد بقي وشم الصليب في الجسم . ولاسيما في الذراع كيًّا بالنار . متَّبعاً دهراً طويلًا عند الاقباط . حكى بعض حجاج بيت المقدس . انهم كانوا يكتوون بالنار في الصدغين واليدين على شكل الصليب . لاعتقادهم انهم يتطهرون به من الخطيئة الاصلية . استناداً الى قول القديس يوحنا المعمدان عن المسيح « هو يعمدكم بالروح القدس والنار[٢]. » (متى ٣:١١) وكانوا يكوون اطفالهم بعد المعمودية . ولاجل هذا الاعتقاد بالتطهر بالصليب من الخطيئة . كان بعض النصارى اذا تمكن من اجتذاب احد المسلمين وتنصيره . يكوي يده بالصليب . وممن فعل ذلك موسى بن سمعان الكركي كاتب امير سيف الدين قطلو بك الجاشنكير . قال النويري « استمال رجلًا من ضَعَفة العقول والقلوب من المسلمين . ونصّره وكواه على يده مثال صليب . فحكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي بقتله . فقُتل سنة ٧١٤ للهجرة (١٣١٤ م)[٣]

(١) لسان العرب كلمة صليب

(2) *Voyage du Seigneur de Villamont* (en 1589) Rouen 1618, pp. 126 127

(٣) نهاية الارب . خزانة ليدن . Arab. 2 O Gaul. F° 71b

ومن النكت والنوادر . ان محمد بن بكتوت الظاهري الكاتب المجوّد المعروف بالقرلندري . لانه لبس زيهم في حلب . كان يكوي في رأسه الصليب حباً بامرأة في حماة . كانت تُعرف ببنت النصرانية . قال الصفدي في ترجمته وهي حافلة بالفكاهة :

« كان يضع المحبرة في يده الشمال . والمجلد من الكشاف على زنده ويكتب منه وهو يغني . ويكتب ما شاء الله ولا يغلط . وكان قليل اللحن في ما يكتبه . واما انا فقد رأيته يكتب ويغني . ولا يغلط . وكان قد اقام بحماة مدة عند الملك المؤيد ينسخ له . فاحب امرأة تُعرف ببنت النصرانية . وكان كلّما تحصّل شيء ينفقه عليها . واشتغل بها عن الكتابة . فشق هذا الحال على الملك المؤيد فنفاها الى شيزر . فحكى لي انه كان يكتب في حماة الى المغرب . ويجري من حماة الى شيزر ويبيت عندها . ويقوم من الاذان في الصبح ويجري الى حماة . ويقعد ويكتب . فاقام على ذلك سنة . وكانت قد تغنّت يوماً . وقالت له « ان كنت تحبني فاكوِ في رأسك صليباً . » ورأيتُ كيَّ الصليب في يافوخه . توفي في طرابلس في ١٥ ربيع الاول سنة ٧٣٥[1] » (١٣٣٤ م)

وكانت النصارى تخط الصليب تبركاً . على كثير مما تتخذه من الآلة والآنية والبيوت والحوانيت والطواحين . وفي كتب الفقه انه « يتعين ان لا يشتري المسلم الدقيق من طواحين اهل الكتاب . ولا يطحن عندهم لوجوه احدها ... السابع ما يفعله

(١) الاول من الوافي بالوفيات . باريس ٥٨٦٠ ص ٢٠٣-٢٠٤

بعضهم من الصليب على باب الطاحون وفي اركانها[1] »

واشهر الآنية التي كان يُرسم عليها الصليب بالطين . راووق الخمر . وقد تغنت به الشعراء في خمرياتها . ومنها قول المرحل وهو زين الدين عمر المعروف بابن وكيل بيت المال . المتوفى في القاهرة سنة ٧١٦ للهجرة (١٣١٦ م) وقد سمى الخمر ابنة المطران :

ودارت علينا الخمر حتى تملكت عقول رجال مثلها ليس يُملك
فلما رأيت القوم بالكأس صُرّعوا وان ابنة المطران بالقوم تفتك
أرقت دم الراووق حِلّا لانني رأيت صليباً فوقه فهو مُشرك[2]

ولابن الوكيل ايضاً

ان الذي جعل الهموم عقارباً جعل المدام حقيقةً درياقها
لم يُصلّب الراووق الا عندما قطع الطريق على الهموم وعاقها[3]

وللامير سيف الدين المُشِدّ في مليح نصراني

لاجله اصبح الراووق منعكفاً على الصليب وشد الكأس زنارا[4]

ولا يزال الى اليوم نصارى الشام يرسمون الصلبان بالطين على اواني ماء الزهر وماء الورد

واما النقش والتصوير فقد كان صُنّاع الزجاج من النصارى في دمشق وحلب وصور والعراق . يصورون بعض المشاهد الدينية . والصلبان في الاواني والكؤوس . وقد اشار الى ذلك الحسن بن هانئ في ابيات قالها في وصف الخمر والكأس وهي :

---

(١) المدخل لابن الحاج . المطبعة الوطنية بالاسكندرية ج ٢ ص ١٩٨
(٢) النهج السديد للمفضل بن ابي الفضائل ٤٥٢٥ باريس ص ٨٣
(٣) شفاء الغليل للخفاجي ص ٩٥
(٤) الثاني من الوافي بالوفيات للصفدي باريس ٢٠١٢ ص ٨١

اقـول لما تحاكيا شَبَهاً ايّهما للتشابه الذهب
هما سواء وفرق بينهما انهما جامد ومنسكب
تأتيـك طاساتها محفَّرة صُوّر فيها القسوس والصُلْب
يتلون انجيلهم وفوقهم سماء خمر نجومهـا الحَبَب

قال الاصبهاني راوي الديوان قوله «صُوّر فيها القسوس والصلب» لانها آنية النصارى . اي صُوّر في هذه الاقداح قسوس في ايديهم الانجيل فعلَت (الخمر) هذه الصورة فغمرتها[1]



(١) الجزء الثاني من ديوان ابي نواس . خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ص ٩٢ـ٩٣

الصليب في القراطيس في عهد الامويين

يراد بالقراطيس اوراق البرديّ (papyrus) التي كانت تُصنع في مصر . وترسل الى كل البلاد . ولاسيا بلاد الروم . حتى ايام عبد الملك بن مروان . وكان صناعها بمصر من نصارى الروم والاقباط . يرسمون عليها في الطراز (filigrane) قبل صقلها . البسملة المسيحية . فكانت الخلفاء وجمهور القضاة والفقهاء وكتاب الدواوين والعمال . في جميع المدن والاصقاع . يستعملون هذا البرديّ بشعاره النصراني . ولم ينتبه له الا عبد الملك اول الخلفاء المروانيين . وقد نقل البيهقي هـذا الخبر باوفى بيان واتم شرح . مرويًّا بلسان الكسائي بسماعه من هرون الرشيد . وهذا نص ما حكاه قال :

« دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه . وبين يديه مال كثير قد شق عنه البِدَر شقًّا . وامر بتفريقه في خدم الخاصة . وبيده درهم تلوح كتابته . وهو يتأمله . وكان كثيرًا ما يحدثني . فقال هل علمت من اول من سنّ هذه الكتابة في الذهب . قلت يا سيدي هذا عبد الملك بن مروان . قال فما كان السبب في ذلك . قلت لا علم لي . غير انه اول من احدث هذه الكتابة . فقال سأخبرك :

« كانت القراطيس للروم . وكان اكثر من بمصر نصرانياً على دين الملك ملك الروم . وكانت تطرّز بالرومية . وكان طرازها « ابا وابنا وروحا قديشا[1] » . فلم يزل كذلك صدر الاسلام كله يمضي

(١) لا يخفى ما في قوله « كانت تطرز بالرومية » من المناقضة للفظ البسملة السريانية . ولا شك ان نصّ البسملة بالرومية نُقل للرشيد بترجمته السريانية بقلم احد النساطرة ببغداد

علي ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك فتنبه عليه وكان فطناً . فبينا هو ذات يوم اذ مرّ به قرطاس . فنظر الى طرازه فأمر ان يترجم بالعربية . ففُعل ذلك . فانكره وقال ما اغلظ هذا في امر الدين والاسلام ان يكون طراز القراطيس وهي تحمل[1] . وفي الاواني والثياب وهما يعملان بمصر . وغير ذلك مما يطرز من سُتُور وغيرها من عمل هذا البلد[2] علي سعته وكثرة ماله واهله . تخرج منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طُرّزت بشِرك وبُنيت عليه[3] . فامر بالكتاب الى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر . بابطال ذلك الطراز علي ما كان يُطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك . وان يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد (وشهد الله انه لا اله الا هو) وهذا طراز القراطيس خاصة الى هذا الوقت . لم ينقص ولم يزد ولم يتغير . وكتب الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم . ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها . بالضرب الوجيع والحبس الطويل

« فلما انبثّت القراطيس بالطراز المُحدث بالتوحيد . وحمل الى بلاد الروم منها . وانتشر خبرها . ووصل الى ملكهم فتُرجم له

(١) في الاصل المطبوع وهي « تحمل في الاواني » ولا يستقيم له معنى . فلاريب ان الواو العاطفة سقطت من قلم بعض النساخ

(٢) في المتن المطبوع « هذه البلاد وعلى سعته وكثرة ماله »

(٣) في الاصل المطبوع وبنيت عليهـا والضمير راجع الى الشرك فهو خطأ ظاهر اصلحناه . ولا تخلو المتون المطبوعة من تصحيف وتحريف لعدم تدبرها ونقدها قبل الطبع

ذلك الطراز . انكره وغلظ عليه . فاستشاط غضباً وكتب الى عبد الملك «ان عمل القراطيس بمصر . وسائر ما يطرز هناك للروم لم يزل يُطرَّز بطراز الروم الى ان ابطلتهُ . فان كان من تقدمك من الخلفاء قد اصابوا فقد اخطأت . وان كنت اصبت فقد اخطأوا . فاختر من هاتين الخلّتين ايتهما شئت واحببت . وقد بعثت لك بهدية . تشبه محلك واحببت ان تجعل ردّ ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما كان يُطرَّز من اصناف الأعلاق . حاجة اشكرك عليها . وتأمر بقبض الهدية .» وكانت عظيمة القدر

«فلما قرأ عبد الملك كتابه . رد الرسول . واعلمه ان لا جواب له . ولم يقبل الهدية فانصرف بها الى صاحبه . فلما وافاه اضعف الهدية . ورد الرسول الى عبد الملك . وقال «اني ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها . ولم تجبني عن كتابي . فاضعفت لك الهدية . وانا ارغب اليك في مثل ما رغبتُ فيه . من ردّ هذا الطراز الى ما كان عليه اولاً .» فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه . ورد الهدية . فكتب اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه . ويقول « انك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي . فتوهمتك استقللت الهدية فأضعفتها . فجريتَ على سبيلك الاول . وقد ضعفتُها ثالثةً . وانا احلف بالمسيح . لتأمرنَّ بردّ الطراز الى ما كان عليه او لآمرنَّ بنقش الدنانير والدراهم . فانك تعلم انه لا يُنقش شيء منها الا ما ينقش في بلادي . — ولم تكن الدراهم والدنانير نُقشت في الاسلام — فيُنقش عليها من شتم نبيّك ما اذا قرأته ارفضّ جبينك له عرقاً . فأحب ان تقبل هديتي . وترد الطراز الى ما كان عليه .

وتجعل ذلك هديّة بررتني بها . وتبقى على الحال بيني وبينك »

« فلما قرأ عبد الملك الكتاب غَلُظ عليه وضاقت به الارض . وقال أحسبني اشأم مولود ولد في الاسلام . لاني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر . ولا يمكنني محوه من جميع مملكة العرب . اذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم . وجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عند احد منهم رأياً يعمل به . فقال له روح بن زنباع . انك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الامر . ولكنك تتعمد تركه . فقال ويحك من . قال : الباقر من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم . قال صدقت . ولكنه أرتج علي الرأي فيه . فكتب الى عامله بالمدينة ان أشخِصْ الي محمد بن علي بن الحسين مكرماً . ومتّعه بمائتي الف درهم لجهازه . وبثلاثمائة الف درهم لنفقته . وأزِحْ عِلّته في جهازه وجهاز من يخرج معه من اصحابه . واحتبس الرسول قِبَله الى موافاته عليه . فلما وافى اخبره الخبر . فقال له الباقر لا يعظمنّ هذا عليك . فانه ليس بشيء من جهتين . احداهما ان الله جل وعز لم يكن ليُطلِق ما يهدّدك به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم . والاخرى وجود الحيلة فيه . قال وما هي . قال تدعو في هذه الساعة بصنّاع يضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير . وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . احدها في وجه الدرهم والدينار . والآخر في الوجه الثاني . وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي ضرب فيها تلك الدراهم والدنانير . ففعل عبد الملك

ذلك ورد رسول ملك الروم اليه يعلمه بذلك ويقول « ان الله جلّ وعزّ مانعُك مما قدّرت ان تفعله وقد تقدمت الى عمالي في اقطار الارض بكذا وكذا وبابطال السكك والطراز الرومية. » فقيل لملك الروم افعل ما كنت تهددت به ملك العرب . فقال انما اردت ان اغيظه بما كتبت به اليه لاني كنت قادراً عليه . والمال وغيره برسوم الروم . فاما الآن فلا افعل . لان ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام . وامتنع من الذي قال[1] »

ومن اعمل النظر في هذه الرواية تتبين له آثار الصنعة والتزويق فيها . ولا يبعد ان يكون الكسائي نفسه ادخل فيها بعض الزخرفة . وابرزها في هذا القالب القصصي بعد ان تناولتها السنة السُمَّار والندماء قبله . وتوسعوا فيها ما شاءت قرائحهم واهواؤهم . في التملق للعباسيين واهل البيت . والغضّ من ملوك الروم ورجال الامويين . وقلّ ان يروي راوٍ في الاسلام خبراً المخلفاء مع القياصرة البيزنطيين دون ان يشوّه وجه الحقيقة رغبةً في تحقير موقف « علوج الروم » وتذليلهم ازاء عزة الخلافة . ولا حاجة الى فطنة كبيرة لادراك ما في قصة تكرار الهدية ثلاثاً . من السخف والتلفيق . لاسقاط شأن ملك الروم وهو الذي كان عبد الملك بن مروان نفسه يدفع له الجزية قبلاً الف دينار في كل جمعة[2] . وهي لم ترد قط في رواية اخرى . ولم يشر اليها البلاذري بحرف . فلا مراء انها منحولة مختلقة من اصلها . ومثلها ايضاً قول صاحب القسطنطينية لعبد الملك « ان

---

(١) المحاسن والمساوى لابرهيم بن محمد البيهقي مصر ١٩٠٦ الجزء الثاني ص ١٢٦ـ١٢٩

(٢) مجلد من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . خزانة اكسفرد Marsch. 289

كان من تقدمك من الخلفاء قد اصابوا فقد اخطأت . وان كنت قد أصبْت فقد اخطأوا . » وهو نفس الانتقاد الذي وضعه مؤرخو الاسلام في القرن السادس للهجرة في فم ملك الروم . حين بلغه اغتصاب الوليد بن عبد الملك كنيسة دمشق الكبرى . وتحويلها الى جامع . قال سعيد بن العاص « لما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب له ملك الروم انك قد هدمت الكنيسة التي رأى ابوك تركها . فان كان حقًّا فقد خالفت اباك . وان كان باطلًا فقد اخطأ ابوك[1] » فهذا القول اذن هو من جملة الرُقع المنسوجة في عهد العباسيين التي كان مؤرخوهم يرقعون بها كل ثوب لزخرفة اقاصيصهم

ومن بينات الوضع في حكاية الكسائي . الدالة على رغبة القُصَّاص في التقرب الى العباسيين والحظوة لديهم . دعواهم ان عبد الملك لم يجد في بطانته ورجال دولته في دمشق من يشير عليه برأي يرتضيه للخروج من هذا المأزق الحرج . فلم يرَ بدًا من الالتجاء الى اكبر اعداء دولته وهو سبط الحسين . واستدعائه مع اصحابه بنفقات باهظة . للاستعانة بمشورته . في حين كان لديه في حاضرة الشام . احزم رجالات بني اميّة رأياً . واوسعهم علماً وخبرةً . وازكنهم فراسةً وهو خالد بن يزيد بن معاوية . فكيف يصح ان يعدل عنه وهو اعلق الناس به . ويؤثر عليه من اشتهر بيته بمنازعة الدولة والخروج عليها . وانما شاء ندماء العباسيين التحبب اليهم بالسكوت عن الاموي . وانزال العلوي . منزله من الفطنة وجودة الرأي . توصلاً الى وصف الدولة الاموية في الشام بقلة الكُفاة في السياسة

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر طبعة بدران . جزء اول . ص ٣٠٢

والتدبير. وتمثيلها في اقبح صورة من العجز والتخلف والفاقة الى رجال العقل والمشورة. امثال اهل الحجاز من الهاشميين والطالبيين الذين استأثروا بالعلم والحكمة والفطنة. ومما يثبت ذلك اشد الاثبات. ما زعموه من جواب خطاب ملك الروم في شأن الكنيسة. حسبما تقدم. قالوا: «فلم يدرِ الوليد ما يجيبه به. فكتب الى الكوفة والبصرة وسائر البلدان ان يجيبوه. فلم يجبه احد. وجلس عقلاء الرجال في حظيرة المسجد يفكرون في ذلك. فدخل عليهم الفرزدق. فقال: ما بال الناس اراهم مجتمعين حِلَقاً حِلَقاً. فقيل له السبب كيت وكيت. فقال انا اجيبه من كتاب الله. قال الله تعالى: «ففهَّمناها سليمان. وكلًا آتينا حكماً وعلماً.» فسُرّي عنهم[1]

ولا يخفى على البصير ما في هذه الحكاية من التسخيف للوليد وبطانته من الامويين. وارادة نسبة العي والغباوة لهم. حتى ضاقوا ذرعاً بالجواب على كلمة لملك الروم. واحتاجوا الى النداء عليها في الآفاق والبلدان. لاستخراج ما عند رعيتهم من الرأي. الى ان قيّض الله لهم الفرزدق. وارسله مُنقذاً فقيهاً حافظاً للقرآن. وناهيك بفقه الفرزدق في القرآن. وبمثل هذه الاقاصيص والاسمار كان مؤرخو العباسيين يدونون التاريخ تعمداً للوضع من اقدار الامويين ووصم زمانهم ورجالهم بالغفلة. وقلة الفهم. التماساً لرضى الخلفاء الهاشميين

وقد نقل البلاذري اهم ما في خبر القراطيس والنقود بلفظ اوجز. واسلوب اقرب الى التصديق. قال:

« كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من ارض مصر. ويأتي

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر طبعة بدران جزء اول ص ٢٠٢_٢٠٣

العرب من قبل الروم الدنانير . فلما كان عبد الملك بن مروان اول من احدث الكتاب الذي يكتب في رؤوس الطوامير من « قل هو الله احد » وغيرها من ذكر الله . كتب اليه ملك الروم : انكم احدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه . فان تركتموه والا اتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . قال: فكبر ذلك في صدر عبد الملك . وكره ان يدع سُنَّة حسنة سنّها . فارسل الى خالد بن يزيد بن معاوية . فقال له : يا أبا هاشم . احدى بنات طَبَق . واخبره الخبر . فقال أفرخ روعك يا امير المؤمنين . حَرّم دنانيرهم فلا يتعامل بها . واضرب للناس سككاً ولا تعفُ هؤلاء الكفرة مماً كرهوا في الطوامير . فقال عبد الملك : فرّجتها عني . فرج الله عنك . وضرب الدنانير

قال عوانة بن الحكم : وكانت الاقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير . وتنسبه الى الربوبية تعالى الله علوّاً كبيراً . وتجعل الصليب مكان « بسم الله الرحمن الرحيم » . فلذلك كره ملك الروم ما كره . واشتد عليه تغيير عبد الملك ما غيره[1]

ومما يرّجح هذه الرواية على رواية البيهقي . وجود بعض النقود اليوم . وعليها اسم خالد بن يزيد بالرومية . وهو ما يثبت تدخله في ضربها . بعد استشارة عبد الملك اياه . ويُستدل من رواية البيهقي ان طراز الصليب في مصر كان يكون ايضا في الاواني والثياب والستور وغيرها . ولم نجد اشارة الى ذلك في موضع آخر من الاصول التي وقفنا عليها

(١) فتوح البلدان طبعة اوربة ص ٢٤٠

الصليب فى النقود

كانت النقود في صدر الاسلام. الى ايام الخليفة عبد الملك ابن مروان. نقوداً رومية. كما كانت حسابات ديوان الخراج تكتب بالرومية ايضاً في الشام. تحت إشراف آل سرجون بن منصور جد القديس يوحنا الدمشقي واشياعهم من الملكيين. واول من غيّر هذه الدنانير النصرانية وجعلها اسلامية بضربها ونقشها. عبد الملك سنة ٧٦ للهجرة (٦٩٥ م) كما سبق من شهادة البلاذري والبيهقي. وكانت في كل هـذه الحقبة تتداولها ايدي المسلمين وعليها رسم الصليب. ومنها الى اليوم في الخزائن الاروبية عدة قطع محفوظة من ايام هرقل. وعليها صورته وهو قائم بشاراته النصرانية. وعلى رأسه التاج يعلوه الصليب. وبيده اليمنى صليب اكبر. وفي اليسرى كرة الارض يرتفع منها في الوسط صليب صغير. وفي احد الوجهين حرف **M** وهو سمة النقود. وفوقـه الاحرف الاوائل من اسم المسيح. وفي الوجه الآخر اسم المدينة التي ضربت فيها والسنة. وقد شاهدنا منها في دار النقود في باريس عدة قطع من الدراهم والدنانير وعليها اسم دمشق. وتاريخ ١٧ و١٨ للهجرة اي ٦٣٨ و٦٣٩ للميلاد. واخرى ضربت في حمص وبعلبك وطبرية. والصليب في جميعها[1]

وفي ايام المماليك في مصر قريباً من سنة ٧٩٠ للهجرة (١٣٨٨م)

---

(1) Henri Lavoix *Catalogue des Monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*. Pièces N° 1, 7, 8, 31, 35, Damas. N° 15 Emese N° 22, 23 Baalbeck; N° 30 Tiberiade

دخلت النقود النصرانية من البندقية . مدينة القاهرة وعمت سائر البلاد والامصار الاسلامية وعليها الصلبان . قال المقريزي بتاريخ شهر صفر سنة ٨١٠ (١٤٠٧ م)

« الذهب ثلاثة اصناف . وهي الذهب الهَرْجة . . . وهو الذهب الاسلامي الخالص من الغش ... والصنف الثاني ذهب يقال له الافرنتي والافلوري والبندقي والدكاه (ducat) وهو يجلب من بلاد الافرنج . وعلى احد وجهيه صورة انسان فى دائرة مكتوبة بقلمهم . وفي الوجه الآخر صورتان في دائرة مكتوبة . ولم يكن يُعرف هذا الصنف قديماً مما يتعامل به الناس . وانما حدث في القاهرة من حدود سنة تسعين وسبعمائة (١٣٨٨ م) . وكثر حتى صار نقداً رائجاً وبلغ الى مائتي درهم وثلاثين درهماً من الفلوس كل دينار منه . ووزن كل مائة دينار من هذا الذهب احد وثمانون مثقالاً وربع مثقال . غير ان الناس قصّوه حتى خف وزنه . واستقر ثمانية وسبعين وثلثاً . . . والنوع الثالث الذهب الناصري وهو الذي ضربه الملك الناصر فرج[1] »

وكان يقال ايضاً لهذا الذهب البندقي . الذهب المشخّص . للصور التي في وجهيه . ونصّ العيني في تاريخه في اخبار سنة ٨١٣ (١٤١٠م) ان الافرنتي الذي عليه الصلبان « تحسن سعره جداً . وبلغ مائتي درهم من الفلوس الجدد[2] . » ولذلك رأى المقريزي انكاره لوجود شعار الكفر عليه . فقال بتاريخ صفر سنة ٨٢٩ (١٤٢٥ م)

---

(١) السلوك لمعرفة الدول والملوك ج ٢ رقم ١٧٢٧ . باريس ص ٢٩٠

(٢) الثاني من عقد الجمان . رقم ١٥٤٤ باريس ص ٩٤

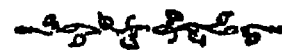
« جمع السلطان الامراء والقضاة وكثيراً من التجار. وتحدث في ابطال المعاملة بالذهب المشخص الذي يقال له الافرنتي . وهو من ضرب الافرنج وعليه شعار كفرهم الذي لا تجيزه الشريعة المحمدية . وهذا الافرنتي كما تقدم ذكره . قد غلب في زمننا من حدود سنة ثمان مائة (١٣٩٧/٨ م) على اكثر مدائن الدنيا من القاهرة ومصر وجميع ارض الشام . وعامة بلاد الحجاز واليمن حتى صار النقد الرائج . فصوّب من حضر رأي السلطان في ابطاله . وان يُعاد سبكه بدار الضرب . ثم يضرَب على السكة الاسلامية[1] » .

وفي قول المقريزي ان الشريعة المحمدية لا تجيز التعامل بمثل هذا الذهب . وعليه شعار الكفر اي الصلبان . نظر لا يخفى على البصير . لان النقود التي كانت بين ايدي الانصار والصحابة والتابعين والخلفاء الراشدين والامويين . الى ايام عبد الملك . كانت كلها مضروبة بمثل هذا الشعار . كما سبق لنا اثباته . وقد فات المقريزي في حين وضع رسالته في النقود الاسلامية . واشار الى الدنانير التي امر معاوية بضربها وعليها صورته قائماً . انه ضرب ايضاً فلوساً بمثل هذه الصورة . وعلى الوجه الآخر منها شكل الصليب وسط دائرة صغيرة . واقتدى به عبد الملك بن مروان . ومن كلا النقدين قطع محفوظة اليوم في الخزائن الاروبية . وفي زعمه ان الصحابة لم ينكروا من نقود معاوية « سوى نقشها فان فيه صورة » . ولكنه اقرّ ان سعيد بن المسيب رحمه الله « كان يبيع بها ويشتري . ولا يعيب من امرها شيئاً . » فكيف ارتضى الذين وضعوا الشريعة المحمدية

---

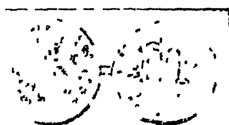
(١) السلوك ج ٢ ص ٣٧١

بمثل الدنانير الهرقلية والفلوس الاموية مع وجود الصلبان فيها ولم يروا حَرَجاً في التعامل بها . ويجيء بعدهم قوم يستجيزون لانفسهم الحق بتحريم ما اقرّه السلف الاول . وما عسى المقريزي كان يقول لو قام في زمانه بعض الملوك والامراء . ووجدوا من الفطنة في السياسة . والرفق في التجارة . ان يضربوا سكّتهم وعليها شعار الكفر . ليتداولها المسلمون والنصارى من مجاوريهم او معامليهم كما فعل بعض ملوك التركمان في مغنيسية وافسس . وكانوا قد خالطوا اللاتين في الجزائر القريبة . وادركوا مقدار الربح من مبادلتهم اصناف التجارات . فرأوا من الحكمة والذكاء . تسهيلًا لهذه المقارضة . ان يضربوا نقوداً على مثال نقودهم . لرواجها وشيوعها . فاستدعوا بعض الصنَّاع الايطاليين . وكلفوهم اتخاذ سكة اسلامية لهم وعليها صورهم . ونقشوا فيها الصلبان بامر منهم . وفي دوائرها كتابة لاتينية تعريبها « ضربت هذه السكة في مغنيسية بامر صاروخان او " ضربت في ثِولوغوس (افسس) بامر عمر بك امير آيدين »[1] ومثل هذه النقود التي عثر عليها في خرائب افسس . المكتشف المشهور وود Wood هي ولا جرم من نوادر السكة ونفائسها . لمكان صور الامراء المسلمين فيها منقوشة بشعار الكفر . وهي شاهدة بتدليس المؤرخين في ما شرحوه لنا من اخبار الاسلام

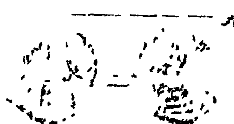


(1) G. Schlumberger. *Les Principautés Franques du Levant.* Paris 1877 pp. 121 123.

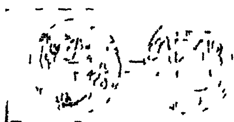
بعض صور النقود الاسلامية المصلّبة



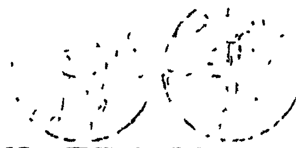
دينار عربي مصلّب ضرب في طبرية وعليه
اسم خالد (بن يزيد) باليونانية



فلس عربي مصلّب عليه صورة
« عبد الملك امير المؤمنين »



فلس عربي مصلّب نقش عليه بالعربية
« ضرب دمشق جائز »



نقد تركماني مصلّب ضرب في ﭘتولوعس
بامر عمر بك امير آيدس

الصليب بين العينين

يظهر ان بعض النساطرة كانوا قديماً يعلّقون الصلبان بين اعين الصبيان. على مثال التعويذ والحرز . وهو ما ورد في ترجمة الربّان هرمز . قال : « حظر ان تُعلق التعاويذ الحديـد وما شاكلها على الناس . او على النساء . وقت ولادهن . وتُجعل الزينة بـين اعين الصبيان صلباناً وما شاكلها . مثـل الِحنان[1] والحرز واشياء كثيرة تجري هذا المجرى[2] »

ويؤخـذ من شهادة ابن المقفع اسقف الاشمونيين بمصر . ان الخراسانيين الذين قاتلوا مروان الجعدي آخر الخلفاء الامويين. لما لحقوه في مصر « نادوا ان من كان نصرانياً يعلّق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته. وعلى ثوبه . وعلى باب بيته . ومن لم يعمل ذلك وقُتل . فلا ذنب علينا منه . وكان للخراسانيين ايضا في حلوق خيلهم صلبان ذهب وفضة[3] »

وفي رحلة بعض الحجاج الى البيت المقدس ان اليعاقبة فيه كانوا يكوون الصليب بالنار على جباههم ومواضع اخرى من اجسامهم. تمحيصا فيما يزعمون لخطيئتهم الاصلية[4]

---

(١) الِحنان في السريانية بمعنى الرحمة . ومجازاً تعني البركة . ويطلق خصوصاً على ما يؤخذ من تراب مدافن القديسين وبعض شظايا عظامهم قصد التبرك بها

(٢) تاريخ جثالقة النساطرة · باريس ٦١٥٣ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٣) سفر البيعة المقدسة · المطبعة الكاثوليكية ص ٢٠٠

4 [illegible] Voyage de Hierusalem et autres lieux de la Terre Sainte [illegible] 1621, p. [illegible]

الصليب في الاعناق

كانت نصارى العرب كثيراً ما تجعل الصليب في اعناقها عنوان ايمانها ، ولما قدم يوحنا بن رؤبة اسقف ايلة على محمد ، كان متقلداً صليباً من ذهب ، وهو معقود الناصية ، اخبر عبد الرحمن بن جابر عن ابيه قال: ورأيت أكيدر (صاحب دومة الجندل) حين قدم به خالد ، وعليه صليب من ذهب وعليه الديباج ظاهراً[1]

وقد تقدم ان الاخطل الشاعر المشهور كان يقال له ذو الصليب ، لملازمته اياه في اكثر ايامه ، وخصوصاً في وفادته على الخلفاء ، وقيامه في الحفلات التي كان ينشد فيها الشعر ، وقد اشتهر هجاؤه للانصار باشارة من يزيد بن معاوية ، «حدث ابو عبيدة قال ، قال رجل لابي عمرو يا عجبا للاخطل ، نصراني كافر ، يهجو المسلمين ، فقال ابو عمرو يا لُكَع : لقد كان الاخطل يجيء وعليه جبة خز وحرز خزّ ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن[2]»

وفي الاغاني ايضاً « قدم الاخطل الكوفة فاتى حوشب بن رُوَيم الشيباني ، فقال اني تحملت حمالتين لاحقن بها دماء قومي ، فنهره ، فاتى سيّار بن البزيعة فسأله ، فاعتذر اليه ، فاتى عكرمة الفياض كاتباً لبشر بن مروان فسأله ، واخبره بما ردّ عليه الرجلان ،

---

(١) كتاب وفادات العرب لابن سعد ص ٢٧ Edit. Wellhausen. Skizze IV

(٢) الاغاني ج ٧ ص ١٧٣

فقال اما اني لا أنهرك . ولا اعتذر اليك . ولكني اعطيك احديهما عيناً . والاخرى عرَضاً . قال وحدث امر بالكوفة فاجتمع الناس في المسجد . فقيل له ان اردت ان تكافئ عكرمة يوماً فاليوم . فلبس جبة خزٍ وركب فرساً . وتقلد صليباً من ذهب . واتى باب المسجد . ونزل عن فرسه . فلما رآه حوشب وسيّار نَفَسا عليه ذلك . وقال له عكرمة يا ابا مالِك . فجاء فوقف وابتدأ ينشد قصيدته :

« لِمن ِ الديارُ بحائل فوَعالُ [1] »

وقلّ ان تغزّل شاعر في الاسلام في غلام نصراني . دون ان يذكر صليبه . ومنه قول مدرك بن علي الشيباني في عمرو بن يوحنا من قصيدته المشهورة :

يا ليتني كنت له صليبا ... اكون منه ابداً قريبا
أبصر حسناً واشمُ طيبا ... لا واشياً اخشى ولا رقيبا [2]

ومثله قول ابي نواس :

قد اقام الصليب في الجيد إلفاً ... فهو يختاره على كل إلف [3]

وللببغاء في دير الزعفران من ابيات :

وعاشرت من رهبانه كل ماجن ... تجاوز لي عن صومه وصلاته
ولمادجا الليل استعار سنا الضحى ... براح نأت بالليل عن ظلماته
الى ان تهادى بين نحري ونحره ... صليب بضوعُ المسك من نفحاته
وخوّفني منه فخلت صليبه ... لشدة ما يخشاه بعض وشاته [4]

(١) الاغاني ج ٧ ص ١٨٧
(٢) اسواق الاشواق لابي الحسن ابراهيم البقاعي . باريس ٣٠٦٥ ص ١٥١
(٣) ديوانه رواية الاصبهاني . باريس ٤٨٣٠ ص ٢٥٢
(٤) عيون التواريخ للكتبي ج ١٢ ص ٢٠٣ . الخزانة التيمورية

وكانت الفتيات والجواري . يُزيّنّ دائماً نحورهن بصلبان الذهب حتى في قصور الخلافة . قيل « دخل المهدي يوماً بعض دوره . فاذا جارية له نصرانية واذا جيبها واسع . وقد انكشف عما بين ثدييها . واذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع . فاستحسنه فمدّ يده اليه فجذبه . فاخذه . فولولت على الصليب فقال المهدي في ذلك :

يوم نازعتها الصليب فقالت ويح نفسي اما تحلّي الصليبا[1] »

وكان للخلفاء رغبة شديدة في الوصائف الروميات . وهنّ احرص النساء على تقلّد الصلبان . وعُرف المأمون بالاستكثار منهنّ . قال الاصبهاني:

« حدّث احمد بن صدقة قال دخلت على المأمون في يوم السعانين . وبين يديه عشرون وصيفة جَلَبى . روميات . مزنّرات . قد تزينّ بالديباج الرومي . وعلقنَ في اعناقهن صلبان الذهب . وفي ايديهن الخوص والزيتون . فقال لي المأمون ويحك يا احمد . قد قلت في هؤلاء ابياتاً فغنني فيها . ثم انشدني :

ظباء كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهنّ السعانين علينا في الزنانير
وقد زرفنّ اصداغاً كاذناب الزرازير
واقبلن باوساط كاوساط الزنابير

فحفظتها وغنّيت فيها . فلم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه . انواع الرقص . من الدستَبَنْد الى الأيلا . حتى سكر . فامر لي بالف دينار . وامر بان يُنثر على الجواري ثلاثة الاف دينار .

(١) تاريخ الطبري . طبعة اوربة ص ٥٤٢ Série 3e vol. 1er

فقبضت الالف . ونُثرت الثلاثة الآلاف عليهن . فانتهبتها معهن»[1]

وللخالدي في دير سعيد . يصف فتاة داعبها وسلبها صليبها يوم عيد :

سَعِدَت صحبتي بدير سعيد يوم عيد في حسنه الف عيد
كم فتاة مثل المهاة سلبنا ها صليباً من بين نحرٍ وجيد[2]

وفي كتب الادب والمصنفات الموضوعة في الديارات . اشارات شتى الى تردّد اعيان المسلمين والشعراء الى الكنائس . لاجتلاء حِسان النصارى . وفي اعناقهن الصلبان . ومن ذلك ما حكاه الاصبهاني عن عبدالله سبط الفضل بن الربيع وزير الامين قال :

«عَلِق جاريةً نصرانية قد رآها في بعض اعياد النصارى . فكان لا يفارق البِيَع في اعيادهم شغفاً بها . فخرج في عيد مار سرجيس فظفر بها في بستان الى جانب البيعة . وقد كان قبل ذلك يراسلها ويعرفها حبه لها . فلا تقدر على مواصلته . ولا على لقائه الا على الطريق . فلما ظفر بها التَوَتْ عليه . وأبت بعض الاباء . ثم ظهرت له وجلست معه . واكلوا وشربوا . واقام معها ومع نسوة كُنّ معها . اسبوعاً كاملاً . ثم انصرفت في يوم خميس . فقال عبدالله ابن العباس في ذلك وغنّى فيه :

رب صهباء من شراب المجوس قهوة بابليّة خندريس
قد تحلّيتها بناي وعود قبل ضرب الشمّاس بالناقوس
وغزال مكحل ذي دلال ساحر الطرف سابريّ عروس

(١) الاغاني ج ١٩ ص ١٣٨ — ١٣٩
(٢) مسالك الابصار للعمري ج ١ ص ٢٩٠

قد خلونا بطيبه نجتليه يوم سبت الى صباح الخميس
بين ورد وبين آس جنيّ وسط بستان دير ما سرجيس
يتثنى بحسن جيد غزال وصليب مفضَّض آبنوس
كم لثمت الصليب في الجيد منها كهلال مكلّل بشموس[١]

وبالاجمال . كانت النساء المسيحيات في الاسلام . البَدَويات منهن والحَضَريات . لا يدعن تعليق الصلبان في نحورهن . ولذلك لما تزوج الفرزدق حدراء بنت زيق بن بسطام الشيباني النصرانية . واغضب امرأته النوار بمدحه اياها . بعثت النوار الى جرير فجآءها وشكت اليه فقال من ابيات :

وما عدلت ذاتُ الصليب ظعينة عُيَيْنة والردْفان منها وحاجبُ[٢]

وكان الصليب فيما عدا الزنار والعمامة والغيار . من سِمَات النصارى في الاسلام . منذ ايام المتوكل على الله . فهو في الارجح اول من سنَّ اضطهاد النصارى . حين غضب على طبيبه بختيشوع . وامر ان يهانوا في جميع البلدان ويؤخذوا بلباس الغيار . « وان يُجعل في عنق كل واحد منهم اذا خرج من بيته صليب خشب وزنه اربعة ارطال بالبغدادي . وجرى على النصارى في زمانه من الصعوبات والاهانات ما لا يوصف[٣] »

ومن ملوك المسلمين الذين تنصروا . وعلّقوا سمة النصرانية في عنقهم . الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان الايوبي . وكانت

(١) الاغاني ج ١٧ ص ١٢٩
(٢) الاغاني ج ٨ ص ١٩١
(٣) اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل ص ٧١

قد بقيت قلعة الصُبَيبَة في يد نوّابه . قال ابن شداد « ثم انه خرج من مصر فقبض عليه عسكر السلطان الملك الناصر . فحملوه اليه . فحبسه في قلعة البيرة . وبعث الى القلعة من تسلّمها في شهر رمضان سنة تسع واربعين وستمائة (١٢٥١ م) وبقيت في يده الى ان انقرضت دولته . واستولى التتر على البلاد في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) فاخرجوا الملك السعيد من البيرة . واحسنوا اليه . واعطوه بانياس . وبقيت في يده الى ان كسر الملك المظفّر قُطُز التركي المُعزّي صاحبُ مصر التترَ في رمضان من السنة . وأخذ الملك السعيد اسيراً في من أخذ من الاسراء . فقتل صبراً . فانه كان على المسلمين اشدّ من التتر . وكان قد تنصّر في هوى زوجة هولاكو[1] وعلّق في صدره صليباً وكتب عليه « حبيس المسلمين طليق التتر[2] »

واقتدى الحاكم بامر الله الفاطمي بالخليفة العباسي المتوكل في إكراه النصارى على تعليق الصلبان الثقيلة في رقابهم . ولم يكتفِ بالزامهم بها في المجتمعات والاسواق . بل اراد ان يتميزوا بها في الحمامات ايضاً . اذا تجرّدوا من ثيابهم . ليُستَدلّ عليهم بها . وامر « ان يتميّز اليهود بجلجل مكان الصليب فلبثوا بذلك مدة

(١) ذكر غير واحد من المؤرخين ان زوجة هولاكو كانت نصرانية . قال قطب الدين اليونيني في الذيل على مرآة الزمان في وفيات سنة ٦٦٤(٦/١٢٦٥ م) ممن توفى فيها هولاكو ... كان على قاعدة المغل في عدم تقيّد بدين او ميل اليه . وانما كانت زوجته طُقُز خاتون قد تنصرت . فكانت تعضد النصارى وتقيم شعارهم بتلك البلاد التي استولى عليها . (خزانة اكسفرد Poc. 132, fol. 133b)

(2) Cité par Clermont Ganneau (*Recueil d'Archéologie Orientale* t. I Paris 1888, pp 254-255)

ثم زال[١] »

قال جمال الدين ابو صادق القُرَشي في كتابه الموسوم بالزُبَد المجموعة. في الحكايات والاشعار والاخبار المسموعة « ومما ذكره اهل التاريخ ان الحاكم الفاطمي امر اليهود والنصارى. إلا الخيابرة. بلبس العمائم السود. وان يحمل النصارى في اعناقهم من الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة ارطال. وان تحمل اليهود في اعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى ..... وان يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان. وفي اعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا بها من المسلمين. وافرد حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين. ونُهوا عن الاجتماع مع المسلمين في الحمامات. وخطّ على حمامات النصارى صور الصلبان. وعلى حمامات اليهود صور القرامي. قال وذلك بعد الاربعمائة[٢] » (١٠٠٩/١٠ م)

ونص سعيد بن يحيي على ان السنة كانت ٤٠٣ (١٠١٢م) وان الصلبان كانت اول ما امر بها الحاكم. طول فتر. ثم غيّرها عليهم بعد شهر وجعلها قدر شبر في شبر ... «ولما كان يوم الاحد النصف من شهر ربيع الاخر (٣ تشرين الثاني) من السنة. أُمروا ايضاً بتعظيم الصلبان التي في اعناقهم. وان يُجعل طولها ذراعاً ملكياً في عرض مثله. وان يكون فتحها ثلثي شبر. وسمكها اصبعاً[٣]»

وحكى الذهبي ان الحاكم شرط على النصارى تعليق الصلبان

---

(١) ذيل تاريخ سعيد بن بطريق ليحيي بن سعيد الانطاكي ص ١٩٥

(٢) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠

(٣) ذيل تاريخ سعيد بن بطريق ليحيي بن سعيد الانطاكي ص ٢٠٢ — ٢٠٣

ظاهرة على صدورهم ... فعملوا صلبان الذهب والفضة . فانكر الحاكم ذلك . وامر المحتسبين بالزامهم بتعليق صلبان الخشب وان يكون قدر الواحد اربعة ارطال[1]»

وجرى بعض سلاطين المماليك على سَنَن الحاكم الفاطمي . ففي سنة ٧٥٤ للهجرة (١٣٤٤ م) «برز مرسوم السلطان بان اليهود والنصارى لا يُستخدمون في ديوان السلطان بمصر والشام ... ولا يدخل النصراني الحمام الا بصليب في عنقه[2]»



(١) مجلد من تاريخ الاسلام خزانة بريتش موزيوم Add 18, fol 211

(٢) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق . الخزانة التيمورية ١٤٩٢ ص ١٣٠

الصليب تحت الاقدام

من الاهانات التي كان المسلمون يتعمدون بها إذلال النصارى والأساءة اليهم. رسم الصلبان على الارض. وإرغام الضعفاء منهم على وطئها بارجلهم قبل اكراههم على الاسلام. حكى نيكُن من رؤساء دير مار سمعان العمودي في القرن الحادي عشر عن احد الرهبان :

« انه في حال مضيّه الى اورشليم لقيه في الطريق مسلمون. فرسموا في الطريق صليباً والزموه بدوسه . واقاموا على ذلك ساعات كثيرة . ولما لم يقدروا به ان يدوس ما رسموه من رسم الصليب . تركوه ومضوا[1] »

ولابن جُبير كلام على « الامير مسعود صاحب الدُروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية ». قال فيه : وحسبك ان صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدي الجزية اليه ويصالحه على ما يجاوره من البلاد. فاسلم مع ابنة عمه على يده. وسيق له صليب ذهب قد أُحمي عليه في النار . فوضعه تحت قدميه . وهي عندهم اعظم علامات الترك لدين النصرانية. والوفاء بدين الاسلام. وتزوج ابنة العم المذكورة. وبلغ هواه . واخذ جيوش المسلمين معه الى القسطنطينية فدخلها بهم وقتل من اهلها نحو الخمسين الفاً من الروم[2] »



(١) كتاب التبيكن الصغير . خزانة دير مار يوحنا الصابغ في الشوير ص ٥٤٦

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٣٨

الصليب فى الكنائس وفوق قبابها وابوابها

رُوي في المفضليات بيت للاعشى تقدم الاستشهاد بـه وهو قوله :

يطوف العفاة بابوابـه كطوف النصارى ببيت الوثن

قالوا « اراد بالوثن الصليب وكانوا ينصبونه في وسط الكنائس[١] »

ومن الابيات الاسلامية التي أُشير فيها الى نصب الصلبان في البِيَع قول بشر بن ابي خازم :

لله درّ بني حذّاء من نَفَر وكل جار على جيرانه كَلِبُ
اذا غدوا وعصيّ الطلح ارجلهم كما تُنَصَّب وسط البيعة الصُلُبُ[٢]

ولابي نواس من ابيات في صفة الخمر :

اقامت حقبةً في قعر دنٍّ تفور وما يُحسُّ لها لهيب
كأن هديرها في الدن يحكي قراة القس قابَلَه الصليب[٣]

ومن نقائض افعال الحاكم بامر الله . وخطرات وساوسه . انه كان قـد امر في سنة ٤٠٢ (١٠١١ م) ان لا يظهر صليب . ولا تقع عليه عين . فنُزعت الصلبان من الكنائس . وطُمس آثارها من ظاهر البيع والهياكل . ثم عاد في السنة التالية فأمر باظهار الصليب

(١) المفضليات طبعة ليال Lyall ص ٥٤٩

(٢) البيان والتبين للجاحظ . المطبعة العلمية ج ٢ ص ٧١

(٣) الثاني من ديوان ابي نواس الفانيكان ٤٥٦ ص ٩٥

الظهور الذي حكيناه في الفصول السابقة . في الاعناق والحمامات[1]

وفي سنة ٤٩٦ للهجرة (١١٠٢/٣ م) كاد الصليب يرفع فوق منارة المسجد الجامع في حلب بامر الفرنج الصليبيين. ثم وُضع فوق الكنيسة العظمى المنسوبة للقديسة هيلانة ام قسطنطين. وهذا تفصيل الخبر كما ساقه ابن شداد . نقلاً عن يحيي بن ابي طي . قال في كلامه على قلعة حلب :

« وكان بهذه القلعة جرس كالتنور العظيم . معلق على برج من ابراجها التي من غربيّها . وكانت الحراس تحركه ثلث دفعات في الليل . دفعة في اوله لانقطاع الرجل عن السعي . واخرى في وسطه للتبديل . واخرى في آخره للإعلام بالفجر . وعُلّق هذا الجرس على القلعة في سنة ست وتسعين واربع مائة (١١٠٢/٣ م) والسبب في تعليقه ما حكاه منتجب الدين يحيي بن ابي طي النجّار الحلبي في تاريخه . ان الفرنج لما ملكوا انطاكية في سنة احدى وتسعين واربعمائة (١٠٩٨ م) طمعوا في بلاد حلب . فخرجوا اليها وعاثوا في سورها . وملكوا معرة النعمان . وقتلوا من فيها . فخافهم الملك رضوان بن تاج الدولة تتش . لعجزه عن دفعهم عن البلاد ومنعهم . فاضطر الى مصالحتهم . فاقترحوا عليه اشياء كثيرة . من جملتها ان يحمل اليهم في كل سنة قطيعة من مال وخيل . وان يُعلّق بقلعة حلب هذا الجرس . ويضع صليباً على منارة المسجد الجامع. فاجابهم الى ذلك . فانكر عليه القاضي ابو الحسن بن يحيي الخشاب — وكان بيده زمام البلد — وَضعَ الصليب على منارة الجامع . وقبّح عليه

(١) ذيل يحيي بن سعيد الانطاكي ص ٢٠٣

ذلك . فراجع الافرنج في امر الصليب . الى ان اذنوا له في وضعه على الكنيسة العظمى التي بنتها هيلاني ام قسطنطين . فلم يزل عليها الى ان حاصرت الفرنج حلب في سنة ثمان عشرة وخمس مائة (١١٢٤ م). ونبشوا ما حولها من القبور . فاخذ لهم القاضي ابن الخشاب المذكور اربع كنائس . وصيرها مساجد. من جملتها الكنيسة العظمى ورمى بالصليب[١] »



(١) الاول من الاعلاق الخطيرة لابن شداد . الفاتيكان رقم ٧٣٠ ص ٣١_٣٢

الصليب في الاعلام والرايات

والطواف به في الاعياد والجنائز

اشرنا قبلاً الى اعتياد بعض الثوار والخارجين على السلطان . رفعَ الرايات والاعلام وعليها الصلبان اثناء القتال . وكان بنو تغلب لا يخرجون الى الحروب دون ان يقدّموا في طليعتهم صليباً عظيماً . ومعه صورة مار سرجيس استنزالاً للظفر . وهو قول الاخطل :

لما رأونا والصليبَ طالعا ومار سرجيس وسماً ناقعا
وابصروا راياتنـا لوامعا كالطير اذ تستورد الشرائعا[1]

وفي اثناء الفتح حظر بعض القواد على النصارى اظهار الصليب في الباعوث . كالعهد الذي كتبه عياض بن غنْم لاهل الرقة لما دخل مدينتهم وقال فيه :

« هذا ما اعطى عياض بن غنم اهل الرقة يوم دخلها . اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم . وكنائسهم لا تُخرب ولا تُسكن . اذا اعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا غيلة . وعلى ان لا يحدثوا كنيسة ولا بيعـة . ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً . شهد الله وكفى بالله شهيداً[2] »

وهذا العهد هو الوحيد في كتاب الفتوح الذي ورد فيه ذكر الصليب . ويظهر من رواية البطريرك ميخائل السرياني ان

(١) ديوان الاخطل ص ٣٠٩

(٢) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اروبة ص ١٧٣

عمرو بن سعد او عُمَير منع ان تظهر الصلبان حتى في الاعياد والطوافات . قال: «ففرح بذلك اليهود وجعلوا ينزعون الصلبان من الكنائس . فرأى نصراني صديق للامير يهودياً يركض فوق سقف كنيسة القديس يوحنا المعمدان ليأخذ صليبها . فاشتدت غيرته واسرع الى الامير . وقال له ايها الامير العادل ليس من الانصاف ان تدع اليهود يهزأون بديننا . فغيّر الله قلب الامير . فاجاب اني لم آمر ان ترفع الصلبان غير التي تكون مرسومة في الطرقات على الحيطان . واوعز الى من بحضرته ان يُدرك اليهودي وهو نازل وبيده الصليب . فاستردّه منه وضربه على رأسه ضربة نثرت دماغه فمات . فسُرّ النصارى وخزِيَ اليهود . وبطل الامر . وعاد النصارى يظهرون الصلبان في الطوافات والاعياد والجنائز . الّا في حمص ودمشق فانهم استمروا على الامتناع منذ برز مرسوم الامير عمرو[1]»

وحكى البطريرك نفسه ان الخليفة عبد الملك بن مروان امر ان تنزع الصلبان وتقتل الخنازير[2]. ثم تنوسي هذا الامر بعد ذلك . وما ابطأ النصارى ان استردوا عادتهم في اظهار الصلبان . وكانوا يرفعونها على اعواد او رماح . اشار اليها الحسن بن هانئ في قصيدة له في عبد يشوع بن مار سرجس فقال في جملة ما استحلفه به :

وبالصلبان ترفعها رماح تلألأ حين تومض بالبريق

قال الاصبهاني في تفسيره : « قوله ترفعها رماح فذلك في يوم الفصح تبرز فيه الصلبان على الرماح[3]»

---

(1) *Chronique de Michel le Syrien* . Edit. Chabot t. II p. 432.
(2) " " " " t. II p. 475.
(٣) ديوان ابي نواس باريس رقم ٤٨٣١ المجلد الثالث ص ٨٤

ومن الابيات التي ورد فيها ذكر صلبان الفصح قول عبدالله ابن الزبير يهجو حجار ابن أبجر العجلي من نصارى العرب :

«سليل النصارى سُدتَ عجلا ومن يكُن
كذلك اهل ان يسود بني عجل
ولكنهم كانوا لئاماً فسُدْتهم
ومثلك من ساد اللئام بلا عقل
وكيف بعجل ان دنا الفصح واغتدت
عليك بنو عجل ومرجلكم يغلي
وعندك قسيس النصارى وصُلبهم
وغانيةٌ صهباء مثل جنى النحل[1] » .

واكثر ما كان يُحتفل بالصليب في عيد الشعانين. وقد توسع الشعراء والكتّاب في وصف هذا العيد . وسبقت ابيات المأمون فيه . وقال الثرواني يصفه في دير الحريق بالحيرة :

خرجنا في شعانين النصارى وشيَّعنا صليب الجاثليق[2]

وفي كتاب الديارات للشابشتي « ان المأمون اجتاز بالدير الاعلى في خروجه الى دمشق . فاقام به اياماً . ووافق نزوله عيد الشعانين .. وخرج رهبان الدير وقسانه الى المذبح . وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر . قد تقلدوا الصلبان . وتوشحوا بالمناديل المنقوشة . فرأى المأمون ذلك فاستحسنه[3] »

(١) الاغاني ج ١٣ ص ٤٦ — ٤٧
(٢) مسالك الابصار للعمري ص ٣١٦
(٣) نسخة برلين ص ٧١

وقال شهاب الدين العمري في كلامه على قبة السنّيق من الابنية القديمة بالحيرة: «وعيد الشعانين بها نَزِه . يخرج فيه النصارى الى العقبة . في احسن زيّ . عليهم الصلبان وبايديهم المجامر . والقسوس والشمامسة على نغم واحد متفق في الالحان . الى ان يقضوا بغيتهم . ثم يعودون على هيئتهم[1]»

وقال قبل ذلك في تعريف دير الاسكون من ديارات الحيرة : «اليه تجتمع النصارى في اعيادهم ... فاذا كان يوم الشعانين اتوه من كل ناحية مع شمامستهم بصُلُبهم واعلامهم[2]»

وظلت الصلبان تظهر هذا الظهور في عيد الشعانين . حتى نهى المتوكل على الله سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) ان يُستعان بالنصارى في الاعمال . وان يعلّمهم مسلم . وان يُظهروا في شعانينهم صليباً[3] . ومشى على اثره الحاكم بامر الله الفاطمي . فامر في صفر سنة ٤٠٢ (١٠١١م) ألّا يظهر صليب ولا تقع عليه عين . ولا يُضرَب بناقوس[4]

وفي ايامه وقبلها «كان رسمُ النصارى في بيت المقدس جارياً في كل عام بحمل شجرة من شجر الزيتون في عيد الشعانين . من الكنيسة المعروفة بالعازرية الى كنيسة القيامة . وبينهما مسافة بعيدة . وان يُشقّ بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات حاملين الصليب مشهوراً . ويركب والي البلد في جميع مواكبه معهم ويذبّ عنهم[5]»

(١) مسالك الابصار ص ٣٢٨
(٢) « « ص ٣١٢
(٣) الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ١٧
(٤) ذيل يحيي بن سعيد الانطاكي ص ٢٠٣
(٥) « « « « « ص ١٩٤

وفيما عدا عيدَي الفصح والشعانين . كان النصارى الملكيون في مصر يحتفلون بليلة الحميم اي ليلة الغطاس . بايقاد النيران والطواف بالصلبان . قال يحيي بن سعيد الانطاكي في وصفها «يخرجون من الكنيسة القاثوليكي التي بقصر الشمع . المعروفة بكنيسة ميكائيل في جمع متوافر . بالقراءة الملحّنة وبالنغمات المعلَنة . والصلبان المشهورة . والوقيد الطائل . الى النيل . بباعوث . ويصلّون مُعلناً كل طريقهم ويخطب الاسقف المرأس عليهم على الشاطئ بالعربي . ويدعون للسلطان . ولمن شاؤوا من خواصه . ويرجعون الى بيعتهم على تلك الهيئة يتممون بها صلواتهم . وحضرهم الحاكم في كثير من الاعوام متنكّراً وشاهدهم . وكان لاهل مصر واهل الملل والمذاهب بمصر في هذا العيد من الطيبة والفرح . ما لا يكون لهم في غيره من ايام السنة واعيادها . فمنع الحاكم الكل في سنة اربعمائة (١٠٠٩م) من جميع ذلك . والّا يتعرض احد من سائر الناس كافةً الى فعل شيء من ذلك في تلك الليلة وذلك اليوم . وان يُعرض عنه . ويُصرف عن ذكره ويجري مجرى سائر الايام . ولا يُستعد له . ولا يُحفَل به[1]»

وكان عيد الغطاس ايضاً يجري في سائر المشرق . في غالب الاوقات . بمزيد الفرح والاحتفال . وتُرفع فيه الصلبان وتقرع النواقيس . ومما يشهد بذلك ما رواه الامير بيبرس الدوادار المنصوري في اخبار سنة ٦٥٩ (١٢٦١ م) قال :

« ارسل هولاكو الى عزّ الدين (كيكاوس) يستدعي شمس الدين يوتاش نائبه . فارسله اليه . فوصل الى أرْزَنكان صحبة رسله .

(١) ذيل يحيي بن سعيد الانطاكي ص ١٩٦ — ١٩٧

فاتفق عند وصولهم اليها عيد غطاس النصارى . فخرجوا متوجهين الى الفرات بجمع كبير . ومعهم الجاثليق واسمه مرَحسيّا . وقد رفعوا الصلبان على الرماح . واعلنوا النواقيس والصياح . فانكر عليهم شمس الدين يوتاش . وقصد منعهم . فقام عليه رسل هولاكو . وقالوا هذه بلاد السلطان ركن الدين (قلج ارسلان) فلا تتحدث الا في بلاد مخدومك عزّ الدين . وسألوا الجاثليق كيف كانت عادتكم في ايام الساطان غياث الدين . فقال لهم : كانت عادتنا نحمل ثلاثة آلاف درهم . ونعمل عيدنا كما نختار . فاخذوا منه ثلاثة آلاف درهم . ومكّنوه من عمل العيد كما اراد . فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هولاكو وشمس دين الدين يوتاش . عاد مغضباً ورجع الى السلطان عزّ الدين وحسّن له العصيان على هولاكو . والخلاف على اخيه ركن الدين[1] »

وكان الاحتفال بقيام الجثالقة يجري احياناً مجرى الاعياد . ويخرج النساطرة لاستقباله بالجموع والصلبان . قال عمرو بن متى :

« في سنة اربع وخمسمائة (١١١٠ م) في خلافة المستظهر أُسيم ايليا الثاني ويُعرف ايضاً بابن المقلي فطركاً بالمدائن ... ثم انحدروا الى دور قني وخرج الكهنة والاسكولانيون من دير مار ماري السليح واستقباوه بالصليب والانجيل والشموع والبخور والصلاة ففرشوا الطريق قدامه مثل جاري العادة بالبسط والثياب[2]»

ولسنا ندري هل كانت جدران المنازل في مثل هذه الاعياد تُفرش ايضاً بالشُقَق الحرير وعليها رسم الصليب . ام ان هذه العادة عادة افرنجية . كما يؤخذ من كلام رضي الدين الحنبلي في ترجمة ابي

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . بريتيش موزيوم Add 23325 f. 52

(٢) كتاب المجدل لعمرو بن متى ص ١٠٣

السعود بن احمد بن محمد النحريري الاصل الحلبي الشافعي . قال :

« ولي نيابة الحكم بعزاز ثم بحلب . ولم يكن الثناء عليه جميلاً . ثم عُزل فتملك قاعة البيسرية التي كانت ملاصقة للمدرسة الحلاوية . وشرع في عمارتها قاسارية (قيسرية) اي خاناً ليسكن بها المسلمون . فحسن في نظره الفاسد ان يجعلها خاناً للفرنج وقنصلهم . لداعٍ لهم حملهم على ذلك .هو ان يكونوا في قفا الحلاوية التي كانت قديماً كنيسة النصارى . انشأتها هيلاني ام قسطنطين . فقوّوه بمال اضافه الى ماله . لبلوغ قبيح آماله . وجعلها على اسلوب ارادوه الى ان سكنوها مع قنصلهم . وزُيّنت مرة حلب . فزيّنوا باب هذه العمارة . خربها الله تعالى . وعلقوا على بابها اقمشة فيها صورة الصليب . وفي هذا الزمان سكن بعض الفرنج في بعض محلات حلب . ولم يكونوا ليسكنوا من قبل الا في بعض الخانات . ولا قوة الا بالله العظيم[1] »

وكانت الصلبان تُحمل ايضاً في الجنائز . ولاسيما في وفيات كبار النصارى . وكتّاب الدواوين من النساطرة . ويحضرها رجال الدولة . وشهدها في مصر مرة الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله لمّا مات وزيره بهرام الارمني سنة ٥٣٥ للهجرة (١١٤٠ م) . وربما وافق خروج الصلبان فيها آونة اشتداد المحنة على النصارى . وتجدد مراسيم التضييق والإعنات . فتتّقد للحال لدى رؤيتها نيران الغضب والتعصب الديني . وتثور الفتن وتُهرَق الدماء . كما حدث في بغداد سنة ٤٠٣ (١٠١٢ م) توفيت فيها زوجة بعض النصارى . وكان من رؤسائهم . فخرجت النوائح والصلبان جهرة معها . فانكر ذلك بعض الهاشميين . فرجم الجنازة ولعنها . فضربه بعض غلمان النصراني (الاتراك) بدبّوس برأسه فشجّه . وهرب النصارى بالجنازة الى البيعة

(١) در الحبب في تاريخ اعيان حلب . باريس ٢١٤٠ ص ٦٤ — ٦٥

الى دار الروم وتبعهم المسلمون ونهبوا البيعة . واكثر دور النصارى المجاورة لها . وثارت الفتنة . وصلبت العامة جماعة من النصارى[1] .



(١) الثاني عشر من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي في الخزانة التيمورية ص ٢٨٤ ـ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . بريتيش موزيوم ، 211 Or. 4619 .

كسر الصلبان واحراقها

لما كان الصليب شعار النصرانية. كان هو المقصود في كل اقتصاص او عداء. والهدف الاول لكل محنة او نكبة يراد إحلالها بأشياعه في الاسلام. فلا بد اذن لتعداد الاوامر والفتن التي حل فيها بأس السلطان ونقمة العامة بالصليب. فانزلته من منصّته والقته بين ايدي النهابة والسنة النار. من استقراء كل الحوادث والثورات التي تتابعت على النصارى منذ الهجرة الى سقوط دولة المماليك. وهو استقصاء طويل الشقة بعيد الغور. يتناول عشرة قرون. ويقتضي مجلداً برأسه. ويضيق عنه هذا المقام. ولعلنا نتوفّر يوماً على بلوغ ما في الطاقة منه. وحسبنا القول ان في كل مرة تطاولت فيه ايدي الاطماع. او استلّت سيوف السلطان. لنكبة الكنائس ومصادرة النصارى. كانت الصلبان فيها ولاسيا الذهب والفضة والجوهر. من اول صرعى البغي والانتقام. وقد مرّ بنا انه لما هجم الافرنج على الاسكندرية في قيادة ملك قبرص سنة ٧٦٢ للهجرة (١٣٦٠ م) واوسعوها قتلاً وسلباً. ونصبوا الصليب فيها فوق باب السدرة امر الأتابك يَلبُغا الناصري نائب السلطان. بمصادرة ما في الكنائس والديارات. فوضعت اليد على مقتنياتها وذخائرها. واجتمع من الصلبان وحدها اثنا عشر الف صليب كان نصيبها الكسر او السبك. وقد افردنا لتاريخ كنيسة ميكائيل للملكيين بمصر. فصلاً وافياً في مجلة المسرة (سنة ١٩٣٤ صفحة ٤٥٣ — ٤٦١) ومن مطالعته وحده

يتضح حظ سائر الكنائس في الخلافة الفاطمية والعباسية . ومقدار ما نُهب في عهدهما او كُسر وأُحرق من الصلبان على كثرتها في كل الديارات والبيع . وهيهات ان يتهيأ لاحد تقدير عدد الصلبان التي تناولتها ايدي الحكام والعامة . او التقمتها افواه النيران . في مِحَن النصرانية فى ايام الحاكم بامر الله . والملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد بلغ ما هُدم من الكنائس والاديار عدة آلاف حتى لم يبقَ في كل انحاء الشام ومصر . كنيسة واحدة سلمت من التدمير والنهب والخراب

ولا بأس مع ذلك من الاستشهاد ببعض النصوص على كسر الصلبان واحراقها حتى في عهد الامويين . نقتصر منها على ما ورد ذكره في كتاب سِيَر البيعة لابن المقفع . وكتابَي الخطط والسلوك للمقريزي . واول ما بدأت مِحَن الصليب في ايام عبد الملك بن مروان. وقد سبق قول البطريرك ميخايل السرياني . انه امر بتحطيم الصلبان . وقتل الخنازير . واقتدى به اخوه وعامله بمصر عبد العزيز بن مروان . فامر بكسر جميع صلبان مصر حتى الذهب والفضة[1]. ولما خلفه ابنه يزيد بن عبد الملك. كان أُسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى في مصر. فاشتد عليهم واوقع بهم ... ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومُحيت التماثيل وكسرت الاصنام جميعها . وكانت كثيرة في سنة اربع ومائة (١٠١٠ م[2])

« وفي سنة ٣٧٨ (٩٨٨ م) منع الحاكم بامر الله النصارى من

(١) سير البيعة المقدسة لابن المقفع ص ١٣١
(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣

تزيين كنائسهم وحملهم الخوص ... وكتب لسائر الاعمال بذلك . وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق[١]»

« وفي سنة ٣٩٤ (١٠٠٣/٤ م) الزم الحاكم بامر الله النصارى بلبس السواد وشدّ الزنار ... واحرق عدةً كثيرة من الصلبان . ومنع النصارى من اظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين[٢]»

« وفي سنة ٣٩٨ (١٠٠٧/٨ م) أحرق عدة صلبان على باب الجامع بمصر وكتب الى سائر الاعمال بذلك[٣]»

« وفي يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) اجتمع العامة بمدينة النحريرية . وهدموا كنيسة للنصارى . وقتلوا منهم عدّة واحرقوا ما فيها من الصلبان . وجعلوها مسجداً تقام فيه الصلاة[٤]»

وهذا المقدار كافٍ في مقام الاستشهاد . وليكن آخر كلامنا على الصليب في الاسلام .

نيس (فرنسة) — ريفون (لبنان) ١٢ تموز سنة ١٩٣٥



(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٦٤
(٢) « « ج ٢ ص ٥٠٧
(٣) « « ج ٢ ص ٢٨٧
(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك . باريس ١٧٢٧ ص ١٣

فهرس ابواب الكتاب

فهرس اصول الكتاب

المطبوعات

البيان والتبيين للجاحظ . المطبعة العلمية . مصر ١٣١١ـ١٣١٣ هـ .
اخبار بطاركة كرسي المشرق . رومة ١٨٩٦ م .
ارشاد الاديب او معجم الادباء لياقوت الرومي . مصر ١٩٠٩ـ١٩١٦ م .
الاغاني للاصبهاني . مصر بولاق ١٢٨٥ هـ .
تاج العروس من جواهر القاموس . لمحمد مرتضى الزبيدي . مصر ١٢٨٦ـ١٣٠٧ هـ .
تاريخ الدولة الاتابكية . ملوك الموصل . لابن الاثير . في مجموع الحروب الصليبية .
باريس ١٨٧٢ م .
تاريخ الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي . بيروت ١٩٠٦ م .
تاريخ الملوك والامم للطبري . ليدن ١٨٧٦ـ ١٩٠١ م .
تهذيب تاريخ ابن عساكر . طبعة بدران . دمشق ١٣٢٩ هـ .
التعليم المسيحي على جاري عادات كنيسة رومية . طبعة رومية . ١٥٨٠ م .
خزانة الادب لابن حجة الحموي . مصر ١٣٠٤ هـ .
الخطط للمقريزي . مصر . مطبعة النيل ١٣٢٤/٢٦ هـ . ومطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .
ديوان الاخطل . بيروت ١٨٩١ م .
رحلة ابن جبير . ليدن ١٨٥٢ م .
رسالة عبدالله بن اسمعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندي . لندرة ١٨٨٥ م .
سنن ابي داود . مصر ١٢٨٠ هـ .
سير البيعة المقدسة لابن المقفع اسقف الاشمونيين . بيروت
شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل للخفاجي . مصر ١٢٨٢ و١٣٢٥ هـ .
صبح الاعشى للقلقشندي . مصر مطبعة الدار ١٩١٣ـ ١٩٢٠ م .
صحيح البخاري . المطبعة الحسينية . مصر ١٣٠٤ هـ .
صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد الكاتب . ليدن

فتوح البلدان للبلاذري . ليدن ١٨٧٩ـ١٩٠١

الفهرست لابن النديم . طبعة مصر

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . مصر ١٢٨٣ هـ .

القاموس المحيط للفيروزبادي . مصر ١٢٧٢ هـ .

الكامل لابن الاثير . مصر ١٢٩٠ هـ .

لسان العرب لابن منظور . مصر ١٢٩٩ـ ١٣٠٨ هـ .

المجدل لعمرو بن متى . رومة ١٨٩٦ م .

المحاسن والمساوئ لابرهيم بن محمد البيهقي . مصر ١٩٠٦ م .

المدخل لابن الحاج . المطبعة الوطنية . الاسكندرية ١٢٩١ هـ .

مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . مطبعة الدار مصر ١٩٢٤ م .

معجم البلدان لياقوت الرومي . ليبسيك ١٨٦٦ـ ١٨٧٠ م .

معجم ما استعجم للبكري . طبعة جوتنجن ١٨٧٦ـ١٨٧٧ م .

المفضليات . طبعة ليال . بيروت ١٩١٢ـ١٩١٣ م .

نقائض جرير والفرزدق . بيروت ١٩٢٢ م .

وفادات العرب لابن سعد . طبعة اروبة

وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لابن خلكان . مصر ١٢٧٥ هـ .

Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale. Henri Lavoix. Paris.

Chronique de Michel le Syrien. Edit. Chabot. Paris.

Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie. Paris.

Essai sur le règne d'Alexis Ier Comnène. Paris. F. Chalandon.

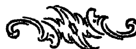
Patrologie Latine. Abbé Migne. Paris. t. 217.

Principautes Franques du Levant. G. Schlumberger. Paris 1877.

Recueil d'Archeologie Orientale. Clermont-Ganneau. Paris 1888.

Voyage de Hierusalem et autres lieux de la Terre Sainte. Bénard Parisien. Paris 1621.

Voyage du Seigneur de Villamont. Rouen 1618.



المخطوطات

الاجوبة الفاخرة على الاسئلة الفاجرة · لاحمد بن ادريس القرافي المالكي	خزانة باريس رقم ١٤٥٦ 〃 الڤاتيكان 〃 ٢٤٣
إجابة السائل الى معرفة الرسائل	〃 باريس 〃 ٤٤٣٧
اسواق الاشواق لابي الحسن ابرهيم البقاعي	〃 〃 〃 ٣٠٦٥
اصول الدين وشفاء قلوب المؤمنين للقس دانيال ابن الخطاب الماريدني	〃 اكسفرد Hunt. 579
الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة لابن شداد	〃 الفاتيكان رقم ٧٣٠
الإعلام بتاريخ الاسلام لمحمد بن الجزري	〃 الاسكندرية 〃 ٢٠٧٢
تاريخ الاسلام للذهبي	〃 بريتيش موزيوم رقم Or. 48
〃 〃 〃	〃 〃 〃 〃 Or. 52
〃 〃 〃 الجزء التاسع	〃 اكسفرد Laud. Or. 304
〃 〃 〃 〃 الحادي عشر	〃 〃 305 〃 〃
تاريخ جثالقة النساطرة	〃 باريس رقم ٦١٥٣
تشريف الايام والعصور · بسيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر	〃 〃 〃 ١٧٠٤
التيبيكن الصغير للراهب نيكن	〃 دير مار يوحنا الصابغ في الشوير (لبنان)
الجوهر الثمين في سِيَر الملوك والسلاطين لابن دقماق	الخزانة التيمورية بمصر رقم ١٤٩٢
الحاوي المستفاد من بديهة الاجتهاد للراهب الطبيب المكين جرجس	خزانة اكسفرد Hunt. 182
خريدة القصر لعماد الدين الاصبهاني	〃 باريس رقم ٣٣٢٩
در الحبب في تاريخ اعيان حلب لرضي الدين الحنبلي	〃 〃 〃 ٢١٤٠

الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني	خزانة مصر الملكية رقم	١٠٢
ديوان الانشاء او المقصد الرفيع المنشا الحادي الى صناعة الانشا	〃 باريس 〃	٤٤٣٩
ديوان ابن المعتز . رواية الصولي	〃 〃 〃	٣٠٨٧
ديوان ابي نواس . رواية الاصبهاني	〃 〃 〃	٤٨٣٠/١
〃 〃 〃 〃 〃	〃 الفاتيكان 〃	٤٥٦
〃 ابن عُنين	〃 〃 〃	٣٦٠
ذيل قطب الدين اليونيني على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي	خزانة اكسفرد	Poc. 132
زبدة الحلب . في تاريخ حلب لابن العديم	〃 باريس رقم	١٦٦٦
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة للامير بيبرس الدوادار المنصوري	〃 بريتيش موزيوم	Add. 2325
السلوك لمعرفة الدول والملوك للمقريزي	〃 باريس رقم	١٧٢٧
عقد الجمان للعيني	〃 〃 〃	١٥٤٤
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي الجزء الثاني	〃 الفاتيكان 〃	٧٣٥
〃 〃 〃 〃 〃 〃 الخامس	الخزانة الظاهرية بدمشق رقم	٤٥
〃 〃 〃 〃 〃 〃 الثاني عشر	الخزانة التيمورية . مصر	
كتاب البرهان على صحيح الايمان . لاحد النساطرة	خزانة الفاتيكان رقم	١٨٠
كتاب البرهان في القوانين المكملة والفرائض المهملة لابي شاكر ابن الراهب	〃 〃 〃	١٠٤
كتاب الديارات للشابشتي	〃 برلين	
كتاب السنن التي انفردت بها القبط الارثذكسيين عن كافة المؤمنين والهراطقة المخالفين . لانبا ميخايل اسقف دمياط	خزانة الفاتيكان رقم	١٥٨
كتاب النحلة . للبطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي	〃 كلية القديس يوسف بيروت رقم	١٤١١

كتاب مواعظ شريفة . والفاظ عالية منيفة للحقير في الرهبان فرنزيسكوس	خزانة الفاتيكان رقم ٥١٢
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي	〃 اكسفرد Marsh. 658
	〃 〃 289 〃
〃 〃 〃 〃 〃	〃 بريتيش موزيوم Or. 4519
المنقذ من الضلالة . الشاهد لمحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالرسالة للشيخ محمد بن عبد القادر الشهير بابن الصلف المحلي المالكي	خزانة باريس رقم ٥٠٤٩
نهاية الارب للنويري	〃 ليدن Arab. 2 O Gaul.
النهج السديد للمفضل بن ابي الفضائل	〃 باريس رقم ٤٥٢٥
الوافي بالوفيات للصفدي . الجزء الاول	〃 〃 〃 ٥٨٦٠
〃 〃 〃 〃 الثاني	〃 〃 〃 ٢٠٦٢





CHAPITRE XX

Les croix brisées et brûlées

LA CROIX DANS L'ISLAM

RÉSUMÉ

PUBLICATIONS DE LA REVUE « AL-MAÇARRAT »
ORGANE DU PATRIARCAT GREC MELKITE-CATHOLIQUE

DOCUMENTS INÉDITS

POUR SERVIR

A

L'HISTOIRE DES PATRIARCATS MELKITES

VI

LA CROIX DANS L'ISLAM

ETUDE LITTERAIRE RITUELLE ET HISTORIQUE
D'APRES LES SOURCES ISLAMIQUES

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

PUBLICATIONS DE LA REVUE « AL-MAÇARRAT »

ORGANE DU PATRIARCAT GREC MELKITE CATHOLIQUE

DOCUMENTS INÉDITS

Pour servir à l'histoire des Patriarcats Melkites

		Fran
I	Maxime III Mazloum : Ses dernières années Par son Neveu l'Archimandrite Thomas Mazloum	8
II	Histoire du pays de Damas Par le Père Michel Breik (Damascain)	10
III	Histoire de Saidanaya Par Habib Zayat	20
IV	Histoire du Scheik Daher-El-Omar-Ez-Zeidani : Gouverneur d'Acre et du Pays de Safad Par Michel Nicolas Sabbagh (d'Acre)	10
V	Les Martyrs d'Alep : 1re Partie	15
	2me Partie	[illegible]
VI	La Croix dans l'Islam Par Habib Zayat	10



PUBLICATIONS DE LA REVUE « AL-MAÇARRAT »
ORGANE DU PATRIARCAT GREC MELKITE CATHOLIQUE

DOCUMENTS INÉDITS

POUR SERVIR

A

L'HISTOIRE DES PATRIARCATS MELKITES

VI

LA CROIX DANS L'ISLAM

ÉTUDE LITTÉRAIRE, RITUELLE ET HISTORIQUE
D'APRÈS LES SOURCES ISLAMIQUES

PAR

HABIB ZAYAT

[illegible]

IMPRIMERIE DE SAINT PAUL

1935